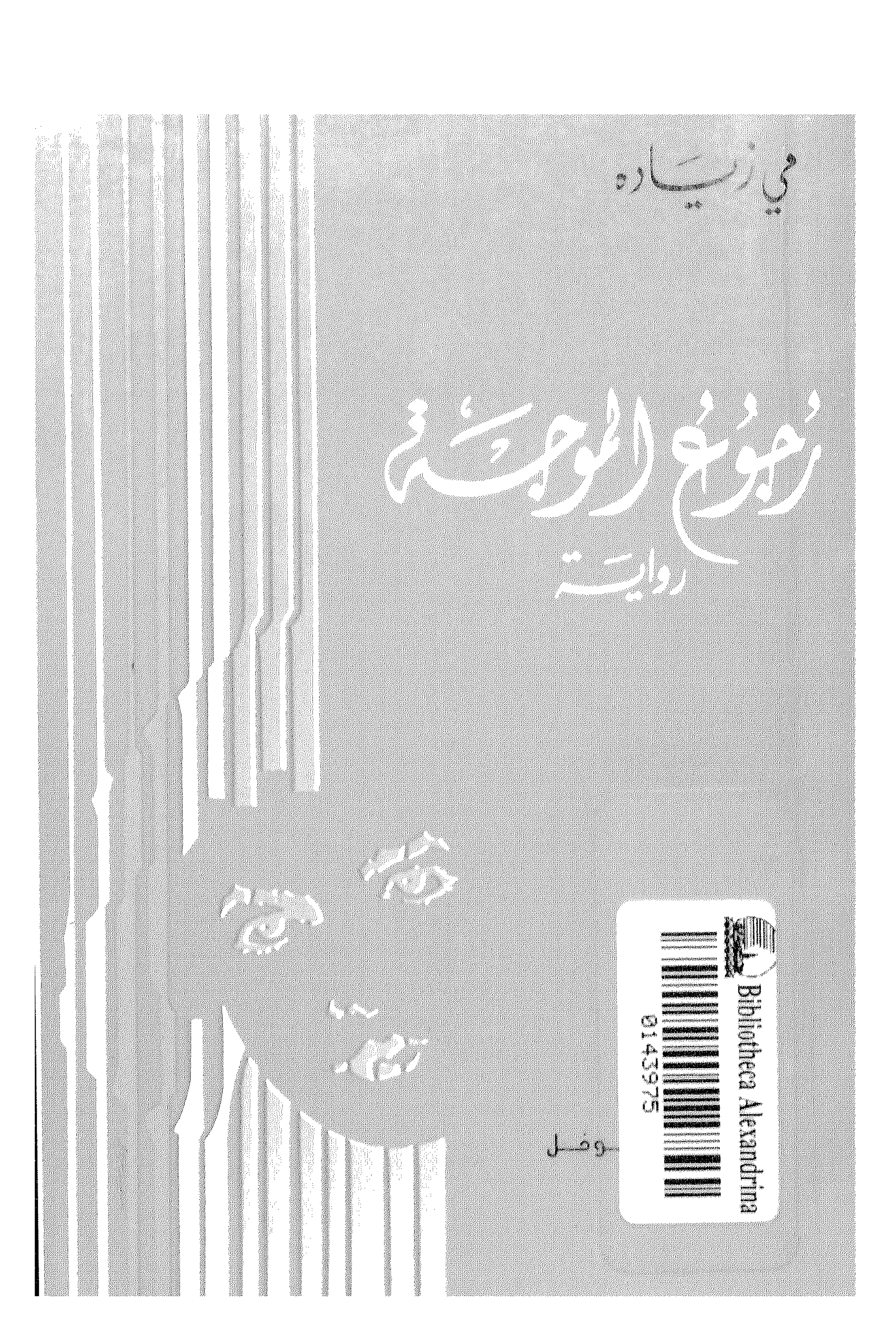

مي زياده
رجوع الموجة
رواية
Bibliotheca Alexandrina
0143975

مي زيادة

رجوع الموجة

رواية

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة
١٩٩٣

© مؤسسة نوفل

شارع سوريا - بناية صمدي - صالحة ، تلفون : ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب : ١١/٢١٦١
بناية مركز الأطباء - جانب مستشفى الجامعة الأميركية - تلفون : ٣٥٤٨٩٨
شارع المعماري - بناية نوفل - تلفون ، ٣٥٤٣٩٤ - تلكس ، نوشاتن ٢٢٢١٠ - لبنان

الفصل الأوّل

كان مساء ٨ اكتوبر بارداً والجو ملبداً بالغيوم . وعندما أقبل أول الليل أخذت مساكن شارع رامبران تتوارى عن النظر شيئاً فشيئاً وراء حجب أستار ذلك الظلام الحالك وكان الهدوء محيطاً بالمكان والسكينة محدقة بجهاته الأربع كأنه روضة في قفر .

وإذا بأمرأة حديثة السن حسنة الهيئة جميلة المنظر ملتحفة برداء واسع تعبر تلك الطريق بسرعة وهي تذهب وتأتي وتصعد وتنزل ناحيـة الرصيف بين شارع لسبون وشارع كوسل الى أن وقفت أخيراً أمام أحد بيوت الشارع الثاني ونظرت ملياً واجهته المشرفة على السكة . لو صادفها أحـد من المارين وقتئذ على تلك الحال لما شك في انها تنتظر شخصاً ما وان ذلك المكان هو موعد للقائها . غير انه لم يكن من سبب لمجيئها سوى مراقبة خيال .. خيال فتاة ولدت في ذاك البيت منذ احدى عشرة سنة إلا أنها

كانت منذ حين رقدت رقادهـــا الابدي تحت المرمر المحاط بشجيرات الورد الابيض .

هذا وقد هجم الظلام الحالك بخيله ورجله حتى ان كثرة المصابيح المتلألئة لم تكن تغني شيئاً. فجلست تلك المرأة بالقرب من باب إحدى الحدائق وغاصت في بحر من الافكار المزعجة وبعد هنيهة بدأت دموعها الكثيرة تنهل على وجناتها وهي تتأوه وتصعد الزفرات من قلب مجروح . وفي غضون ذلك أرادت ان تترك تلك البقعة التي كثيراً ما تذكرتها أيام سعادتها وإذ عزمت على مفارقة ذلك المكان سمعت بغتة صوت مركبة في أول شارع كوسل فاستولى عليها رعب شديد واكتنفتها الحيرة من كل جانب وأخذت ترتجف وهي لا تدري ماذا تعمـــل من شدة انفعالها وأوشكت ان تقع على الحضيض لكن يدا قوية أمسكتها بغتة وهي مطبقة الجفنين كمغمى عليها واضعة رأسها على ذلك الكتف التي تسندها وفي أثناء ذلك سمعت صوتاً كان قد غاب عنها منذ خمس سنوات .

— مرغريت !

ففتحت عينيها ونظرت في وجه من ناداها ثم أطبقتهما وبعد لحظة سمع صوتاً من بين شفتيها المصفرتين :

— ألبير !

— مرغريت. مرغريت . أنت هنا ؟ ألم تزالي تتذكرين وقد أتيت الى هنا لتنظري البيت الذي ولدت فيه؟ ثم جعل ألبير يضغط

على ساعد مرغريت بشدة ولم تستطع الجواب بل كان يصعب عليها التنفس وبعد هنيهة أجابت بالجهد : نعم جئت ولكن لا تكلمني بل دعني وشأني .

فدنا منها وهو يمسك بيدها وهمس في اذنها : من احدى عشرة سنة يامرغريت .. لو عاشت ابنتنا لكانت بلغت إلى هذا العمر . قال ذلك والزفير يقطع صوته وكاد يتقطع قلب تلك المسكينة التي بدأت عبراتها تجري على وجنتيها كسيل مدرار .

— ابكي يا مرغريت اندبي ابنتك واندبي حظ ابيها التعس . نعم انا هــو ذلك الأب السيىء الحظ والد ايڤـون أليف صباك وشريك حياتك سابقاً وقد نسيت ذلك .

فقاطعته بجرأة قائلة : لا أنا لم أنس . ثم ظهر على محياها انها تتذكر كل ما قاسته من العذاب مع ذلك الرجل في غابر الزمان. على ان ألبير تظاهر بأنه لم يسمع كلامها ثم قال :

— تعالي نذهب الى الحديقة إذ أنهــا خالية في مثل هــذه الساعة ولنأخذ معنا كالسابق ابنتنا ايڤون .

فأذعنت مرغريت طائعة لأنها كانت قد اعتادت الطاعة لهذا الصوت ولكن في الدقيقة عينها خطر لفكرها كوميض البرق انها زوجة رجل آخر بيد انها ظنت ذلك حلماً : نعم هــذا هو الشارع : وهذا هو البيت بعينه وهــذه الحديقة نفسها : وألبير بجانبها حسب سابق عهده .

ــ تلك كانت حياتها الماضية وهذا هو عين الحقيقة بل كيف تغير كل هذا يا ترى ؟ وكانا يسيران في طريقهما صامتين وهو يخالسها النظر من وقت الى آخر يمتع عينه بذلك الوجه الجميل المحبوب الذي يستره برقع شفاف فكان يخاطب نفسه قائلاً : ترى كيف نسيت زوجتي وعلق قلبي بحب امرأة أخرى نعم اني عشت عدة سنوات بعيداً عن تلك التي كنت أعبدها ثم أنه شعر بنار شوق تحرقه وأراد أن يضمها الى صدره مستغفراً إياها أما هي فكانت مضطربة قلقة (كريشة في مهب الريح (لا تعرف ماذا تفتكر وتقول وعندما وصلا الى باب الحديقة عادت الى الوراء وقالت :

ــ يجب أن أذهب وحدي أرجو أن تتركني وشأني .

ــ لا

فأطاعته ولم تخالف له أمراً وسارا معاً الى أن وصلا الى بقعة كثيرة الاشجار خالية ثم ظهرت لهما عن بعد أرض مخصبة فيها أشجارعظيمة غير أنها مجردة من أوراقها وكان هذا المنظرمؤثراً جداً تحت جنح الظلام الحالك وإذ تأكدت مرغريت ان لا ثالث بينهما ولارقيب علىحركاتها اطمأنتقليلا وأمعنت النظر في وجه ألبير الذي إذ لحظ منها ذلك أطرق ولم ينبس ببنت شفة .

ــ كيف وجدتني أما ترين هيئتي متغيرة ؟

— نعم

— هل تقدمت في السن ؟

— لا شك في ذلك .

— أرى ان الوقوف يتعبني فلنجلس هنا يا مرغريت .

فاتجها نحو مقعـــد كان قريباً منهما وجلسا عليه ثم شرعت مرغريت تحدق في ملامح ذلك الرجل الذي أحبته مدة طويلة فرأته شاحب اللون ضعيف الجسم منحط القوى وعند ذلك مالت إليه كل الميل وأحست بشفقة عظيمة عليـــه حتى ان قلبها كاد يذوب حناناً . ولم يكن إلا القليل حتى تذكرت خداعه لهـا بعد موت ابنتها ايفون الوحيدة . نعم قد تمثلت لها تلك الخيانة الفظيعة التي تقشعر منها الأبدان كيف لا وهي انها عندما كانت تبكي وتنوح وفي حالة يرثى لهـــا من الأحزان رأت بين ذراعي زوجها امرأة أخرى هي من أعز صديقاتها.. لعمري انها لأفكار مؤلمة تأبى ألا ان تستقر في المخيلة لتعذب صاحبها تعذيباً وتكوي فؤاده حيناً بعد حين بتذكرات هي أحر من الجمر .

إذ رأى ألبير مرغريت صامتة أحس بما كان يدور في خلدها من الأفكار المزعجة والهواجس المؤلمة فدنا منها بكل هـــدوء وأسند رأسه المكشوف إلى كتفها المرتجف فنظرت إلى شعره الأسود الذي طالما سرحته بيديها ثم حدقت في صدغيه حيث كانت تظهر عروق زرقاء نحيفة . .فعندذلك زاد اضطرابها وهاجت

عواطفها . فلم يغب عن ألبير ما شعرت بـه لأنه كان عارفاً حق المعرفة بعظم حنوها وضعفها النسائي فقال لها بلين

– مرغريت لا تخافي . نعم قـد كنت زوجك في الماضي وهانذا لم أزل حتى الآن بل وما دمت حياً ارزق .

– لا لا .

– بل نعم نعم . ثم وقف وأمسك يديها وقال : ذهبت اليوم إلى مدفن ابنتي ايڤون وأتيت بهذا الغصن الصغير من شجرة ورد أبيض بالقرب من ذلك المدفن وها هو .

فتناولته مرغريت من يده وقبلته بحرقة مراراً ولثمته تكراراً ثم استأنف كلامه قائلاً :

نعم ان ايڤون كانت تحبنا حباً شديداً لازيادة بعده لمستزيد. أما مرغريت فلم تستطع أن تجيبه بشيء لأن العبرات كانت تسيل بغزارة على وجنتيها والزفرات كادت تخنقها ثم تنفست الصعداء مراراً والعرق يتصبب من وجهها

– آه يا مرغريت اني من حين فقدت أمي لم أجـد أحـداً يكلمني عن ايڤون عزيزتي فهي ماثلة أمام عيني آناء الليل وأطراف النهار ولا تبرح من بالي لحظة واحدة

– أين تركت صديقتك ؟

قالت هذا وهي تضطرب اضطرابا من شدة التأثر

— ان تلك لا علم لي بمهب ريحها نعم انها صحبتني مدة سنة تقريباً عندما كنا نجوب البلاد سوية وننتقل من جهة إلى أخرى ثم افترقنا وذهب كل لشأنه .

— ترى أين ذهبت ؟

— إني لا أعلم من أمرها شيئاً فان بلاد الله واسعة أرجاؤها. وأما أنا فقد عزمت على أن لا أعود إلى باريس حيث أرى آثار سعادتي الماضية وقد توفيت والدتي بعد ان استقدمتني إليها على أني أشكر الله شكراً جزيلا يا مرغريت لأنه قيض لي مرآك

— إني وحقك لم أجن ذنباً ولم أقترف إثماً ولم أفكر قط في الخيانة بل أراني لم أزل متسربلة بثوبي العفاف والأمانة . نعم إني كنت أحبك وأحافظ غاية المحافظة على ذلك الحب بيد انك خنت وهدمت سعادتك بيدك

فهز كتفيه وقال : كان يجب أن تسامحيني يا مرغريت ... لم لا تغفرين لي لم لا تسدلين ذيل العفو وتعودين زوجة لي كالأول ؟

فاطرقت مرغريت إلى الأرض صامتة لا تحير جواباً وجرت دموعها على خدها غير ان قلبها كان يخفق خفوق الغبطة وبعد هنيهة قالت :

— لقد سامحتك

— لكن سماحك هـذا لا يجدي نفعاً الآن ومنذ قليل قلت عنـدما زرت مدفنها يا بنيتي الصغيرة الراقدة تحت الثرى : أتصدقين ان أمك قـد تركتني فيها أنـذا أبكيك وحدي طالمـا بقيت حياً .

فتحركت الشفقة في قلبها ثانية وقالت : لا . بل ابكيا معي

— نعم الآن أبكيها معك ولكن غداً مع من يجب أن أبكيها؟

أما مرغريت ففكرت بولدها الذي كان ينتظر رجوعها إلى البيت فإذ ذاك كفكفت دموعها بمنديل ونهضت ناظرة إلى الساعة ثم قالت لا أرى شيئاً .

فأخذ ألبير الساعة ونظر إليها وقال الوقت منتصف الساعة السابعة

— فيجب علي الانصراف إذاً .. فان ابني الصغير ..

أنا عارف بوجود ولد لك وأنا أحبه من كل قلبي كيف لا وهو أخو ايفون . إني أستودعـك الله الآن فاذهبي يا مرغريت بحراسته تعالى ولكن أستحلفك بأن تعودي إليّ في الغد .

— أعدك بأني أعود

— من كان يحبك منذ عشرة سنوات ويبذل النفس والنفيس في سبيل رضاك ألست أنا ؟

— نعم أنت

– ألم تكوني زوجتي التي أحببتها قبل أن تعرفي رجلا آخر

– نعم

– فلنعد إذاً يا عزيزتي إلى ما كنا عليه قبلا من حسن الاتحاد والوئام لنقضي باقي العمر معاً في معترك هذه الحياة وانسي الماضي. ومن ذا الذي ما ساء قط ! أما أنا فاني أعتبرك قرينتي كالسابق ولا أريد أن أنفصل عنك ولا أن أعيش بدونك . فاناشدك الله أن تعودي إليّ فان العود أحمد اقسمي لي إذاً بحبك لإيفون بأن ترجعي بدون ابطاء

أ إلى هذا الحد تصل بإلحاحك ؟

– نعم إذ لم يبق لي من طاقة على الاصطبار ولا أقـدر على احتمال بعادك عني إلى أكثر من غـد : نعم يا مرغريت وحقك اني أذوب ضجراً في وحدتي وقد سئمت نفسي العيشة في هـذه الحياة الدنيا : عودي إليّ ولا تخافي على ولدك فان والده يعتني به وأمك تعوله فلا بأس عليه أما أنا فاني أراني وحيداً في تعاستي في هذه الدنيا إذ لا معين لي ولا أنيس يسليني في وحدتي فاسرعي بالرجوع ان كنت تحبين ايفون وتعزيني (ثم حاول أن يأخذها بين ذراعيه)

– ثق بكلامي وتيقن اني أرجع على شرط أن لا تتلفظ بشيء مما ذكرته الآن .

– سأطيعك بلا سؤال

— وأنا سأرجع بدون ريب وأما الآن فلا بد من ذهابي على جناح السرعة لمشاهدة ابني الذي قد مل من الانتظار .

— اذهبي الآن بحراسة الله وغداً تريني انتظرك وبعد غد وكل وقت في هذا المكان فاني لا أتعداه .

فتركته مرغريت وسارت في سبيلها وكل جوارحه أنظار تشيعها. أما هي فبعد أن ابتعدت عنه قليلا التفتت فرأته لم يبرح مكانه وقد رفع يده مسلماً ثم ركبت أول عربة وجدتها وذهبت تنهب الارض حتى توارت عن النظر .



الفصل الثاني

انتهت مرغريت الى البيت وقرعت الجرس ففتح ورأت زوجها أمامها وهو طلق المحيا باسم الشفتين ولما رآها أسرع اليها وصافحها وأمارات الحب ظاهرة على وجهه ثم خاطبها بحنو قائلا:

لقد تأخرت يا عزيزتي فماذا جرى لك اليوم ؟

فأجابته غير مكترثة به : لم يجر لي من شيء قالت هذا واذا بصوت أمها يناديها : اسرعي يا ابنتي اسرعي فان صغيرك يبكي ولا يريد أن ينام بدونك : فقالت هانذا آتية . ثم هرولت الى حجرتها وأشعلت فيها المصباح ثم وقفت جامدة حائرة في وسط الحجرة لا تعي على شيء مرتبطة اليدين حزينه النفس وكأني بها ترى ذاتها انها غريبة في هذا البيت . وكان زوجها قد تبعها فلما رآها على هذه الحال دنا منها ومد يده الى رأسها نازعاً الدبابيس من شعرها ثم رفع القبعة عنه وقال :

أسرعي الى الصغير ياحبيبتي فانه يبكي منذ وقت غير وجيز؟

ـ ويلاه هل هو مريض ؟

ـ لا بل هو في غاية الصحة لكنه قد اعتاد ان يرى امه كل يوم قبل هذا الوقت فتخفي اليه وبعد ان تناغيه قليلا ينام لامحالة فأسرعت مرغريت الى حجرة ابنها واطفأ زوجها المصباح ثم دخل مكتبه وجعل يقرأ في كتاب كان قد طواه عند دخول مرغريت وبعد مضي نصف ساعة خرجت تتبعها أمها على الأثر فسألها زوجها :

هل نام الصغير ؟

فقالت والدتها نعم نام .

ـ فاذا يلزم ان نتناول طعام العشاء .

وإذ جلس الثلاثة على المائدة شعرت مرغريت ببعض التعزية عندما رأت زوجها الحقيقي تلقاءها وتذكرت ألبير ذلك الخداع الذي عذبها ونغص عيشها فقابلت بين الأول والثاني فرأت فرقاً عظيما بين معاملة هذا وذاك فان زوجها الثاني كثيراً ما أحبها في كل مرحلة من مراحل هذه الحياة وخصوصاً عندما كان يراها محتاجة فانه مدّ لها يد المساعدة واتخذها تحت ظل حمايته لكي ينسيها آلامها السالفة ويبدل غمومها وهمومها بالأفراح ولذلك شعرت بميل اليه فائق العادة ورأت انها محتاجة الى أن تخبره بواقعة الحال أي بما جرى لها في يومها غير أن وجود والدتها مدام موستل منعها

عن الكلام فأبقت ذلك الى أول فرصة تسنح لها إلا أنها لم تستطع كتمان عواطفها واخفاء احساساتها ولم تمض سوى هنيهة حتى تفجرت ينابيع دموعها وسالت انهار دموعها على خديها وشعرت بضيقٍ صدر ضاغطٍ على مجرى النفسِ كاد يخنقها وأخذت تئن أنين البائس الحزين . فحينئذ نهض روجر عن كرسيه مرتعباً مضطرباً وأوقفها في مكانها وأسندها على ذراعه ثم ذهب بها الى حجرته حيث أجلسها على مقعد هناك وفي غضون ذلك هرولت مدام موستل والطعام في فيها وقالت : ما الخبر وأي خطب جرى ؟

— لا تخافي يا حماتي دعيني أعالجها وحدي أما أنت فاذهبي الى مزاولة شؤونك .

— نعم في مثل هـــذا اليوم ولدت ابنتها ايفون فيظهر انها تذكرت ذلك فما قدرت والحالة هذه على امتلاك عواطفها

— لم يغرب عني ذلك وقد ادركت كل هذا من ملامح وجهها وظهر لي جلياً انها تفتكر بابنتها ايفون . قال هذا وشرع يداوي امرأته هذه بعناية كلية واعتناء لا زيادة بعده لمستزيد وهـــو ينشقها المنعشات على اختلاف انواعها وضروبها وكان طبيباً ماهراً في صناعة الطب ولم يكن إلا بضع دقائق حتى عادت اليها قواها وفتحت عينيها كأنها قـــد انتبهت من سبات عميق وقالت : يا روجر اذهب وأتم طعامك وأنت يا والدتي اصحبيه الى المائدة

واستكملي غداءك فما من حاجة لي بكما بعد .

فأجابت والدتها : لا أستطيع ان آكل لقمة واحدة لأن معدتي في اضطراب شديد !

— تعالى يا حماتي معي الى المائدة. وأنت يا عزيزتي مرغريت اذا شعرت بتعب جديد فما عليك إلا أن تقرعي جرس الاستدعاء لأحضر بسرعة .

— لا شك في ذلك .

فهدأ روع مرغريت وجمعت قواها لأن المكان خلا لها ثم بدأت ثانية تعيد في فكرها ذكر ماضيها وما حدث لها في أدوار حياتها ، وما هي إلا لحظة حتى اغمضت جفنيها فتمثل حينئذ شخص ألبير الحلو أمام ناظريها فأمعنت النظر طويلا في صباحة ذلك الوجه المنير والجبهة العالية البيضاء كما انها تأملت في ذلك القوام المعتدل الذي لا يضاهيه قوام فضلا عن رنات صوته اللذيذة الى غير ذلك من الصفات التي كانت تأخذ بمجامع القلوب. فعند ذلك عضت على أناملها ندما وكادت تغيب عن الرشد ثم عـــادت الى واجباتها وفكرت في شخص الدكتور روجر الذي كان قوي البنية عريض المنكبين اسمر اللون ذا لحية سوداء طويلة وعينين براقتين تلوح على محياه طهارة القلب وسلامة النية وحرية الضمير.

قد علم مما تقدم ان مرغريت تحب ابن عمها روجر لكن شتان ما بين الحبين الأول والثاني وقد قال الشاعر :

نزه فؤادك حيث شئت من الهوى
مـــا الحب إلا للحبيب الأول

نعم ان حبها وعشقها وميلها وهواها وقلبها كل ذلك كانت قدمته الى ألبير الذي عرفته أولا ومعلوم أن الحب كلما عظم ازدادت الغيرة . على أن مرغريت عندما رأت ما كان من أمر زوجها ألبير مع صديقتها بلانش كبر عليها وصعب احتماله فأسرعت الى أمها وقصت عليها الخبر مظهرة لها عظيم حزنها وشديد كدرها غير أن هذه لم تكن ذات تعقل ورزانة وحكمة لتسكين جأشها وتهدئة روعها فهاجت وماجت لدى سماعها ذلك وانتفضت انتفاضاً وقالت تبا له من رجل دنيء ، ووغد لئيم عادم الشرف فاقد الاحساسات الانسانية أسألك رباه ان تخلص ابنتي من هذا الوحش الضاري !

ولم تكتف العجوز بهذا الكلام المهيج العواطف دفعة بل كانت تتلفظ به مراراً وتراجعه تكراراً أمام ابنتها مظهرة لها فظاعة عمل زوجها وخيانته التي لا يطاق احتمالها ولم تزل على هذا ومثله من اغتياب ألبير وتخطئته بأسمج الألفاظ والتعابير حتى بدأت مرغريت تشعر بأن مراحل العداوة والحقد تغلي في احشائها وصارت تكره ألبير كرهاً عظيماً وشعرت بأنها لا تقدر أن تساكنه ولا أن تعيش معه . فعزمت على طلب الطلاق . على انها عندما أعلنت ذلك لوالدتها قالت لها هذا الصواب بعينه كيف لا وان

الزوج هو سيء المبادىء فاسد السيرة فلا تطيب السكنى معه بوجه من الوجوه .

أما ألبير فانه سمع في إحـــدى المرات الحديث الذي كان يدور بين الأم وابنتها بهـذا الخصوص وعندما طرقت مسمعيه كلمة « طلاق » أسرع طالباً مواجهة مرغريت فأبت مقابلته كل الاباء ثم كتب لها بعد ذلك عدة رسائل غير انها أعادتها إليه على الاثر مختومة كما كانت . فاستعان ببعض الأشخاص من ذوي الرزانة والرصانة والمعرفة التامة بحقائق الأمور ليحادثوها في الأمر فرفضت مقابلتهم وأبت أن تسمع كلام وسيط أو حديث رسول في هذا الشأن . وبعـد ان استعمل كل الوسائط الفعالة لاصلاح ذات البين بينه وبينها ولم تفد شيئاً بـل ذهبت ادراج الرياح لم يشأ أن يحتقرها ولا أن يعاملها معاملة سوء فعزم أخيراً على أن لا يعود يفاتحها بهذا الأمر بل يدعها وشأنها تاركاً حبلها على غاربها .

هذا وبعد أن تم أمر الطلاق بين الزوجين شعرت مرغريت بوخز الضمير المتعب وضيق في صدرها وما ذلك إلا لأنها كانت تحب ألبير حباً لا زيادة بعده وكانت تبكي بكاء مراً وتندب حظها حينما كان يخطر في بالها انها قد فارقته فراقاً لا اتحاد بعده ولم يجر ذلك إلا بمجرد ارادتها وقبولها التام . على أن والدتها كانت تبذل أقصى الجهد منجهة ثانية باقناعها بأن تتزوج ابن عمها روجر الذي كان يحبها حباً شديداً غير أن مرغريت لم تعبأ بهذا

الكلام في أول الأمر وحسبته أمراً ساقطاً لا يلزم أن يذكر بشفة ولكن نظراً لما رأته من حنو ابن عمها روجر وحسن أمانته وشفقته أخذت تفكر في هذا الأمر من وقت إلى آخر إلى أن أضحى شغلاً لها صباح مساء وكثيراً ما كان هذا الفكر يقلقها في غدواتها وروحاتها وإذ لم تر مناصاً من هذه الأفكار المتعبة والهواجس المضنية اضطرت أن ترضى الاقتران بابن عمها روجر على انها عزمت عزماً أكيداً ثابتاً على أن تمحو من فكرها اسم ألبير واسم كل شخص يذكرها به .

أما روجر فقصد اتخاذ كل الوسائط الفعالة لكي يجعلها سعيدة ذات عيش رغد وقلب مطمئن لتنسى ذكر تلك الآلام الماضية . وكان يقرأ غمومها وسائر أحزانها بل وأعماق أفكارها في عينيها وملامح محياها وكان يدل على كل هذا اشاراتها وحركاتها . وقد فهم روجر في ذلك المساء ان مرغريت تتعذب عذاباً مبرّحاً بتذكر أمر محزن .

كان يجري ذلك في مخيلة مرغريت وأخيراً طرق اذنيها صوت أمها تخاطب روجر في قاعة الطعام

– اني في قلق شديد فدعني أذهب إليها

– لا ضرورة لذهابك بل الزمي مكانك

– انها وحدها فلا شك انها تضجر

– دعيها منفردة ان الوحدة تفيدها في هذا الوقت

– على انها عصبية المزاج

– لا عجب في ذلك فانها قد ذاقت من أنواع العذاب في ما مضى من حياتها ألواناً

– تباً له من قاس !

فأنكر الدكتور روجر عليها ذلك وقال لها بلطف : أرجو يا حماتي أن لا تعودي إلى ذكره

– أهلك الله ألبير الذي كان سبب شقائها وعذابها

– بل الأولى بك السكوت لأنها إذا سمعت شيئاً من هذا فانه يزيدها آلاماً

– لا أستطيع أن أسكت

– ان كان الأمر كما تقولين فأنا أشير عليك بالنوم العاجل كهذه

فأطرقت مدام موستل ولم تجب بكلمة . ولم يكن إلا القليل حتى نهضا وذهبا إلى حجرة مرغريت ثم دنت منها والدتها وودعتها بقبلة في جبينها قبل أن تذهب إلى سريرها . أما مرغريت فأشارت عليها بالبقاء ففعلت . ثم سألها روجر قائلاً : كيف أنت الآن يا عزيزتي مرغريت ؟

– أحسن قليلاً واني أشكرك شكراً جزيلاً ولم أزل أحس ببعض التعب

— لا بأس عليك، فالزمي سريرك وخففي عنك قلق الفكر واضطراب البال فانهما يضنيان الجسم كما لا يخفي عليك

ثم جلس واشتغل بمطالعة الجرائد وكان حيناً بعد حين يخالسها النظر وأما هي فكانت تتناوم وليست بنائمة .



الفصل الثالث

عنـد انبلاج صباح اليوم الثاني نهضت مرغريت من فراشها وسألت عن زوجها فأجيبت بأنه خرج منذ ساعتين فذهبت إلى غرفة طفلها وحملته على ذراعيها وأخـــذت تكثر من تقبيله وملاعبته وضمه إلى صدرها كأنها لم تره منذ أشهر طويلة . وكان وجود صغيرها مكسيم بين ذراعيها أحسن واسطة لأن تنسى ألبير وتسلوه وبينما هي تناغي صغيرها وتلثمه أقسمت له بأنها قد محت من فكرها اسم ألبير فهي مزمعة أن لا تعود إلى تذكره في حال من الأحوال ولا يصعب عليها ذلك بل يكون سهلاً لديها بوجود طفلها المحبوب الذي تبـــذل دونه النفس والنفيس فهي مصممة أن لا تحب سوى طفلها هذا ووالده الدكتور روجر . وكان ذلك الطفل كحمامة وديعة حين تمس شفتاه ثغرها تشعر بلذة خارقة العادة وتحن إليه حناناً لا غاية بعده وهو يلغو تارة ويصرخ أخرى وحيناً يصفق وحيناً يبش في وجه أمه ثم يقرع اديم الارض برجليه فرحاً .

ثم أتى الدكتور روجر فوجد زوجته وابنه على هذه الحالة من الانشراح والسرور فوقف هنيهة عنـــد باب الحجرة مراقباً متأملاً حركاتهما اللطيفة مصغياً إلى حديثهما الذي حسن وقعـه في أذنيه ولم يكن قد شعر من قبل بمثل هذه اللذة . وكانت عيناه ترمقانهما بحنو لا يوصف وفؤاده يرقص من هزّة الطرب على رخيم صوتهما وما عتم أن رمى بنفسه عليهما وتناول الطفل بذراعه وضم أمه بالأخرى سائلاً عن صحتها الغالية باهتمام عظيم ثم قال : أريد أن أريك شيئاً جديداً أيتها العزيزة فاوجه إليه حسن التفاتك . وعلى أثر قوله هذا ضرب جرس الاستدعاء فدخل أحد الخدام فأشار إليه الدكتور بأن يأخذ الطفل مكسيم إلى مرضعه ثم خرج إلى صحن الدار وأتى بباقة أزهار بيضاء كبيرة ووضعها بين يدي مرغريت قائلاً : عزيزتي قد آليت على نفسي أن أزور مدفن ايڤون في هذا اليوم لأضع عليه هـــذه الأزهار النقية وقد خطر لي هـذا أمس وأرغب في أن تصحبيني في هذه الزيارة فماذا ترين ؟

فرمقته مرغريت بنظرة طويلة كانت تبدو في خلالها على صفحات محياها عبارات الشكر والامتنان لأن فكر روجر هذا قد سرها سروراً لا يوصف ووقع من نفسها أعـذب موقع ثم أطرقت وعلامات الابتهاج وانشراح الصدر بادية على وجهها

— ماذا ترين يا مهجتي ألم يحل ذلك في عينيك ؟ دعي عنك التأثر وأتركي الانفعالات النفسانية الشديدة الأضرار بالصحة

ولا شيء يحل محل الصحة كما لا يغرب عنك

سارا في الشارع الموصل إلى المقبرة ويد مرغريت بيد زوجها ولم ينبسا ببنت شفة في أثناء سيرهما هذا، وعندما قربا من المدفن أسرعت في مشيتها اشتياقاً وحنيناً للراقدة فيه وما وقع نظرها عليـه حتى هرولت بسرعة شديدة وجثت على ركبتيها خائرة القوى منكسرة القلب حزينة النفس دامعة العـين غارقة في بحر من الأحزان .

وبعـد ذلك حانت التفاتة من روجر إلى ضريح ايڤون فرآه مكسوا بأنواع الزهر المختلفة الألوان والأشكال فوضع باقته فوقها بوافر الاحترام ولحظ بين تلك الورود الذابلة أكليلا وباقات منها خضرآء حديثة الوضع فتأكد أن مرغريت هي التي أتت بها بالأمس فقال لها : لماذا لا تخبرينني حينما تأتين إلى هنا ؟ نعم الآن فهمت جلياً سبب دموعك وقلق أفكارك مساء أمس !

أمـا مرغريت فكانت غائبة عن رشدها لا تسمع ولا تفهم ما يقال لها وهي ذارفة الدموع باكية نائحة راثية فلذة كبدها ايڤون بألفاظ تفتت الأكباد وتلين الصخر الأصم مخاطبة ايڤون كأنها في عالم الأحياء بين يديها ثم تنظر حيناً إلى الأزهار التي على المدفن وتلمسها بأناملها ثم تقبل بحرقة شديدة تلك التي أتى بهـا ألبير كأنها ذخيرة منه .

فعلى هذا الضريح تذكرت مرغريت في ذلك الوقت حبيبين

لما تقدمها بروحها : ألبير وايڤون . نعم انها لم تحب أحداً في ماضي حياتها كما أحبتهما وقد بدا لها أن موت ألبير ولو كانت منفصلة عنه أشد عليها من موت ايڤون .

فيا أيها الدهر الخؤون الغدار لم جمعت قواك وبذلت جهدك في تفريق شمل الأحباب وتشتيت الأصحاب لم هذا الجور أيها الزمان الظالم بل كيف يسوغ لك أيتها الطبيعة اصدار هذا الحكم المخالف كل عدالة على خط مستقيم بتشتيت هذه الأسرة الصغيرة ؟

وأما أنت أيها الحب القوي الجبار ترى بأي عبارات أكلمك وبأي لسان أخاطبك بل أي ألفاظ أسوقها إليك لعمري أنك لأنت الملك العظيم الاقتدار أنت المستبد بالحكم على شعبك الكثير لم أيها الحب لا تصد هجمات الكون عن عبادك وتمنع الايذاء عن آلك والتابعين شرعك ومرادك ؟

لم لم تدفع إليها الحب عن هؤلاء الثلاثة نقمات غضب العالم والدهر والزمان والسماء والأرض والعناصر ؟ مع انك أيها الحب على كل شيء قادر . لعمري انه لم يكن من العدل ان تسمح للطبيعة والأحوال أن تكدر صفاء عيش من اتبعوا شريعتك . كيف يجوز أيها الحب ان تدع الموت والافتراق يدخلان بيوت من يعبدونك ويحافظون كل المحافظة على اتباع سنتك ؟

ظلت مرغريت جاثية زمناً طويلا وهي غائصة في بحر من

التأملات المحزنة لكنها تصورت على حين بغتة شخص ايڤون منتصباً أمامها فهتفت : ابنتي المحبوبة هلمي إلى داخل قلبي تعالي أقيمي في حضن أمك الحزينة التي لا تنساك ولا يطيب لها عيش بعدك سلام عليك وألف تحية يا ابنتي التي أذوب حباً لدى ذكر اسمك العـــذب المستحب . سلام على عينيك المطبقتين حتى يوم النشور سلام على شفتيك الباردتين أين أنت الآن يا ولدي ايڤون عند من تسكنين ومع من من الملائكة تلعبين ؟

بل سلام على روحك الطاهرة التي لا شك انها تتنعم بذلك الفرح الدائم ! لكن أنى لجسمك المتنعم أن يحتمل السكنى مع الديدان ويطيق ظلمة القبور؟ نعم نعم قد تلاشى جمالك واضمحل حسنك وذبل ورد خديك وأضحت أعضاؤك رمماً بالية وصرت أثراً بعد عين . . فوا لوعتاه ووا حسرتاه . لم لا تسرع أيها الموت وتأخذني إلى فلذة كبدي ايڤون ؟ تعال ولا تبطيء .

وفي غضون ذلك نظر روجر إلى مرغريت فكاد قلبه يتمزق وخصوصاً عندما رأى جسمها ملقى على الحضيض جثة لا حراك بها فدنا منها ومسك يدها وأنهضها بحنو قائلاً لها : انهضي أيتها الحبيبة الحزينة فقد آن لنـــا أن نذهب . فوقفت وقد أودعت ذلك المكان التنهدات والزفرات التي يرق لها الجلمود ثم سارت وهي مستندة إلى ذراعه أما هو فعندما رأى أن الحزن آخذ منها مأخذه شرع يعزيها ويقول لها : كفكفي دموعك وافتكري بمكسيم ولدك الجميل المحبوب تذكري كلماته اللطيفة افطني في تلك

القبلات الحلوة اللذيذة فقالت بصوت خفي نعم .. نعم .. بعد ان كادت تخنقها العبرات ثم نشفت دموعها وهي صامتة . ذلك ولم يزل روجر يردد على مسامعها آيات حبه لها الى غير ذلك من العبارات التي تجعلها تسلو ايڤون ثم قال لها : اني أبذل النفس والنفيس في سبيل رضاك ياعزيزتي لأنسيك ذكرعذاباتك الماضية وما تقاسينه من فراق ايڤون .

— لا أقدر أن أنساها .

— أعرف ذلك ولكن ما قولك اذا رزقت ايڤون أخرى ؟

— فابتسمت عند ذكر ذلك على ما بها من الحزن والغم .



الفصل الرابع

وعندمـا وصلا الى سانت اوغستان قـالت له : اشكرك ياروجر شكراً جزيلا .

ــ باذن الله سأشاهدك مساء في أتم صحة وأنعم بال .

قال هذا وذهب في طريق آخر لعيادة مرضاه وكان النهار صحواً مع أن السحب تحجب السماء وبينما كانت مرغريت سائرة تذكرت عندما سمعت الساعة تضرب انها عاهدت ألبير بالمقابلة في مثل هذا الوقت بالحديقة المعلومة فوقفت تناجي نفسها وقد حارت في أمرها ولم تدر ما تعمل على انها كانت متيقنة نيل عزاء عظيم بقربه لا سبيل للحصول عليه بسواه ، لأن الحديث بينهما سيكون في ايقون . . ثم قالت في نفسها لا مانع يصدني عن الذهاب اليه فهو وحيد في هذه الدنيا لا أنيس له ولا تعزية فلا يمكني ان أخلف وعدي بل لا بد من الذهاب اليه الآن على جناح السرعة قالت هذا وسارت ووجهتها موعد اللقاء ولما بلغت باب الحديقة رجعت القهقرى كأنها ندمت على مجيئها ولم تزل على هذه الحال

مترددة ، تقدّم رجلا وتؤخر أخرى الى أن عزمت أخيراً على الدخول فتوغلت بين تلك الاشجار الملتفة بقدم ثابتة وعزم أكيد حتى انتهت الى الموضع المقصود فوجدته جالسا ينتظرها علىأحر من نار الغضا ، وعندما لاحت له خف لملاقاتها.ثم صافحها وقبل شعر رأسها فاضطربت وتملصت من يده فاعتذر وقال : لا بأس سامحيني يامرغريت فاني تعيس !

— يظهر لي ذلك .

ثم ضغط على يدها بعد ان سكت طويلا وقال : اني تعب في هذه الحياة الدنيا فلا يمكني قط احتمال هذه المعيشة . نعم لن تكوني قرينة لي فيما بعد فان سعادتي قد انتهت كما يظهر لي ومالت شمس الهناء والصفاء الى المغيب وأضحت التعاسة اليفي والشقاء سميري والعذاب المبرح ألزم إلي من ظلي وذلك من يوم انفصالك عني فمن كانت حالته هذه فموته خير له ؟ نعم يامرغريت انك ستكونين نظيري في التعاسة جزاء عملك هذا ومن يعش يرَ .

— أنا لا أكون كذلك لأني لا استحق .

— كنت معي أسعد حظاً ولا يمكنك انكار هذا لأنك قد اقررت بما أقول مراراً عديدة ولا يقوم الانكار بعد الاقرار .

نعم قد قضينا معاً أياماً ما كان أحلاها وأشهاها ولم يبق سوى ان نتمناها .

ــ أنا لا انكر ذلك انما كنت أرى اني سعيدة وانت تحبني

ــ أنا وحقك قد أحببتك دائماً ولم افتر عن حبك قط من عهد معرفتي بك فكوني اذا على ثقة من هذا لأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ــ لو كنت تحبني لما مالت نفسك الى ارتكاب الخيانة ومخالفة شروط المحبة .

ــ رأيتك أليفة الأحزان والأشجان على فقد ايفون تنوحين وتعولين آناء الليل واطراف النهار وهذا مخالف لطبيعة الرجل على خط مستقيم وقد سئمت نفسي طول البكاء والأنين فجرى ما جرى على غير ارادة تامة مني .

وفي غضون ذلك كانت مرغريت صامتة تفكر بمعاملة روجر لها وكيف انه وقف حياته وأوقاته وأثمن ما بين يديه لأجـــل مرضاتها وسعادتها مع ان ألبير هذا قد ذاقت في ايامه كؤوس العذاب أشكالاً وألواناً ويصعب عليها ان تنسى كل ذلك ثم رفعت رأسها وقالت :

قد اتممت وعدي اليوم وأتيت الى هنا لأني أقسمت بابنتي

ايڤون لكني لن أعود بالمستقبل الى ذلك وها أنذا استودعك الله قالت هذا وهمت بالانصراف .

ـــ اعيريني أيضاً نظرة واحدة أما آخر كلامي معك فهو : اني كما قلت لك اذا شئت ان تريني فأنا في كل مساء هنا واذا أردت يوماً ما ان تري رسم .. ايڤون .

ـــ رسم ايڤون ؟

ـــ نعم .

ـــ واين هذا الرسم ؟

ـــ عندي وأما مكان سكناي فهو بيت والدتي القديم حيث لا يأتي إليّ أحـــد ، فتعالي يا مرغريت هلمي وانظري صورة ابنتك ايڤون ..

والآن استودعك الله ثم ذهب لايلوي على شيء . أما مرغريت فهمت ان تتبعه لكن قواها لم تطاوعها وجلست على مقعد هناك وأجهشت بالبكاء لائمة نفسها على قساوتها في معاملة ألبير بالماضي الى هذه الدرجة وكيف انها طلبت الطلاق واتخذت روجر قريباً لها فيما بعد ، كل ذلك كان يجول بفكرها ولو لم تكن مرتبطة بسنّة الزواج ثانية ، لعادت الى ألبير لتقضي معه باقي حياتها .

الفصل الخامس

ان مرغريت لم تفتكر منذ ذلك اليوم بألبير إلا نادراً وقليلا ما كان يخطر في بالها وكانت تستخدم كل الوسائط لتسلوه ولا تبالي به وقد أخذت تزداد اهتماماً وتعتني بنوع خاص بارضاء زوجها الذي لم يأل جهداً في تكثير الأسباب لاسعادها في شؤون هذه الحياة وكانت تقضي اكثر أوقاتها في ملاعبة طفلها وملاحظة أمور بيتها .

وفي صباح أحـــد الأيام من شهر نوفمبر خرجت المرضع مع مكسيم حسب العـــادة للتنزه لكنها لم ترجع في الوقت المعين لرجوعها بـل تأخرت نصف ساعة تقريباً فقلقت مرغريت من هذا التأخر واضطرب بلبالها وأخذت تحسب ألف حساب فقصد روجر أن يذهب بنفسه للبحث عنهما لأجل تسكين روعها لأنها كانت منحرفة الصحة منذ أيام وهي تتأثر من أقل انزعاج . وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث بهـذا الموضوع إذا بالمرضع حاملة

مكسيم على ذراعيها وهي تلهث تعباً لأنهـــا كانت تمشي بسرعة فقالت لها مرغريت : قـد قلت لك غير مرة ان لا تتأخري في الرجوع عن الوقت المعين لك ومعذلك فقد تأخرت اليوم نصف ساعة فاشتغل بالنا فما سبب تأخرك هذا ؟

نسيت ساعتي هنا يا سيدتي فأرجو منك المعذرة هـذه المرة وفضلاً عن ذلـــك اني صادفت رجلاً في الطريق استوقفني بسبب ملاعبته مكسيم وقد ظهر لي انه يحب الأطفال كثيراً .

— ومن هو هـــذا الرجل ؟ وتبادر إلى ذهن مرغريت في الحال انه هو ألبير فاكفهرّ وجهها . فقال لها روجر: لا تعكري صفاء مزاجك يا عزيزتي ثم قـــال للمرضع وأنت من صادفك بالطريق ؟

— لقيت رجلاً لابساً ثياب حـــداد وهو كثيراً ما يلاعب الأولاد الصغار ويلاطفهم وقـد سألني بنوع خصوصي عن عمر مكسيم وأحواله وأظن انه فاقد ابناً له !

— مهما كانت حالته فلا يلزم أن تكلمي أحداً بالطريق من الآن فصاعدا لا سيا الذين لا تعرفينهم .

— أنا لا اكلم أحداً حتى الذي أعرفه ولكن هذا الرجل هو الذي استوقفني وتكلم معي وبدأ يلاعب الطفل مظهراً له سائر

أنواع الملاطفة فأراني والحالة هذه لم أقترف إثماً ولم أجن ذنباً ثم خرجت مقطبة الوجه .

— لا أهمية لتأخرشا هذا ياعزيزتي مرغريت و كثيراً مايحدث ذلك في كل زمان ومكان ولابـد من أن يكون كلامها صحيحاً وان ذلك الرجل توفي له حديثاً ولد من عمر مكسيم

— أفهم كل هذا ولكن قصدي أن لا تـكلم أحـداً بالمستقبل لأن الآداب توجب على الانسان ولا سيما المرأة أن تكون في غاية الاحتشام كما لا يخفي عليك

— لا فضّ فوكَ ونعْم الرأي رأيك.ها اني أراك قد تعافيت من الزكام وملكت تمـام الصحة التي هي أغلى من كنوز الأرض عندي فاذا كان الجو نهار غـد صافياً فلا بد من الخروج للتنزه . وفي أثنـاء ذلك دخـــل الخادم وبيده رسالة برقية باسم روجر يطلب بها مرسلها من الدكتور روجر الاهتمام ببعض الشؤون فخرج على الفور وعلى أثر ذلك دخلت المرضع إلى قاعـة الطعام وهيلم تزلمقطبة الوجه متمتمة ، فأجلست الطفل بالقرب منأمه وأحضرت له الطعام قائلة فينفسها : يظهر انه لا ثقة لهم بي فأي شيء ارتكبت من سوء الأدب يا ترى ؟

— صادفت رجلاً بالطريق فسألني باهتمام عن عمر الولد وبمـا ن الآداب تقضي علي بمجاوبته جاوبته ولا أراني مخطئة فيذلك.

ـ ما مضى قد مضى دعينا منهذه القصة . الآن اذهبي لاتمام شغلك كما كنت أفهمتك .

وكانت يـد مرغريت تنتفض انتفاض العصفور بلله المطر عندما كانت تلقم الصغير لأنها فهمت من كلام المرضع ووصفها بأن الرجل هو ألبير بعينه فغلت مراجـــل الشوق والهيام في قلبها وتساقطت دموعها الغزيرة وحنت إلى ألبـير حنين الظمآن إلى الماء والعليل إلى الشفاء ثم ضمت ولدها إلى صدرها وانهالت عليه باللثم والتقبيل أكثر من عادتها .

الفصل السادس

ان حال مرغريت قد تغيرت تغيراً كلياً مذ أخبرتها المرضع بأن رجلاً صادفها في الطريق وعادت لا تذوق الراحة ولا طعم الكرى لأن ذكر ألبير لازمها ملازمة الظل وفي أكثر الأيام كانت تخرج للتنزه مع المرضع ومكسيم على أمـل أن تصادف بغيتها وغاية غاياتها غير انها لم تجد له عيناً ولا أثراً مع انها كانت تكثر من الترداد إلى الحديقة المذكورة . وفي ذات يوم خطر في بالهـا بعد أن عيل صبرها تسأل المرضع ألم تزل تصادف الرجل المذكور فأجابتها بأنفة :

ــ نعم أجده مراراً لكني كل مرة ألمحه عن بعـــد أسير في طريق آخر حتى لا ألتقي به ولولا ذلك لكنت حضرتك تقولين اني أنا التي افتش عنه لأستميله إليّ . قلت والشيء بالشيء يذكر ان اللواتي يرمن استمالت إليهن كثيرات من ذوات الجاه والوجاهة والجمـال الرائع ولعمري اني لا أصلح ان أكون خادمة عنـدهن ويظهر لي أن الرجل جدير بالاعتبار حريٌّ بأن يكون من رجال

الأعمال المهمة ولا يخطيء ظني لأنا نرى غالباً أن المنظر دليل على المخبر .. ولكن يا ليت صحته أحسن منها الآن فانه ضئيل الجسم نحيفه .

كانت تقول ذلك وهي تزعم بأنها تعرف الفراسة وقراءة الأفكار إذ أنها لم تصف الرجل وما هو مفطور عليه من وفرة ذكائها وحسن ادراكها وكانت تنتظر تعجباً وعلامة استحسان من سيدتها مرغريت لكن هذه ظلت صامتة لا تنطق بكلمة ولا تبدي اشارة سلب ولا ايجاب على ان ما فاهت به المرضع كان يخرق فؤادها كسهام نارية وكادت تجهش بالبكاء لو لم تضبط نفسها بعد الجهد الجهيد .. ولما خرجت المرضع من الحجرة طفقت تفكر في هيجان بالها واضطراب بلبالها وما تلاقيه من العذابات المبرحة لدى تذكرها ألبير فوطدت النفس على ان تبحث عنه في كل ناحية وصوب لتراه ، إطفاءً لغليل اشواقها التي كادت تذهب بحياتها بيد أن عزيمتها فترت عندما تمثلت ناظريها أمانة روجر وحبه المفرط لها فصعب عليها اذا ان تخون من يحافظ على الأمانة لها أشد المحافظة ولا يزال يبحث عن أسباب سعادتها ورفاهيتها .

ان مرغريت افترقت عن صديقاتها وانفصلت عن صواحبها من عهد زواجها بروجر ولهذا أخذت تشعر يوماً بعد آخر بضجر الوحدة وصعوبة الانفراد فملت هذه العيشة . مع انها في مدة

اقامتها مع ألبير كانت قد اعتادت على مبادلة الزيارات والاجتماعات البيتية والرغبة في اللبس والتبرج والتزين بأنواع الحلى الثمينة . ومنذ اقترنت بروجر رغبت عن كل ذلك واستقلت بذاتها استقلالا تاما اجتهدت ان لا تلتقي بمن يعرفنها خوفاً من تجديد جراحها العميقة وذكر الأيام الماضية .

أما الدكتور روجر فانه كان ميالا جداً الى هذا الاستقلال ويستحسن جـداً عشرة مرغريت ومحادثتها ولذا لم يكن يخالط أحداً من الناس غيرها إلا في النادر وعند الضرورة الماسة . وكان والداه وشقيقته المتزوجة بأحد ضباط العسكرية يقطنون في جهة بعيدة عنه وأخوه البكر كان مهندساً يسكن في ضواحي باريس مع زوجته وأولاده وبما أن المسافة بعيدة كانت المواصلات متعذرة إلا مرات قليلة في أثناء السنة .

لكن في إبّان الربيع كانوا يتزاورون على رغم البعد وكانت مرغريت تحب سلفتها وأولادها الثلاثة ، وهذه لم تكن بأقل محبة لها ولمكسيم الصغير وكانتا تجلسان وتتجاذبان أطراف الحديث أوقاتاً طويلة تقضيانها بأرق المعاشرات وألطفها .

فعلى هذا الأسلوب كانت حياة مرغريت ، أيْ بين تدليل زوجها وعبادته لها وقبلاتها اللذيذة الحلوة لولدها مكسيم وبين حنو اسرة روجر عليها واحترامهم لها وملاطفتهم اياها الى ان

جمعها الاتفاق بألبير في ذلك المساء كما تقدم ذلك في حينه . وهي تهتز شوقاً وتحن حنيناً الى ذكر أيام تقضت ما كان أحلاها وأشهاها .

وفي أحد الأيام عندما ضربت الساعة الخامسة هتفت بصوت عال من غير انتباه : لا بد لي من أن أراه ولي الاختيار العام بذلك ان روجر لا يسألني أبداً عن ذهابي وايابي وألبير كان زوجي واني لأحبه حباً مفرطاً فما المانع لي . .

نهضت في الحال وذهبت مسرعة الى المكان المعهود إذ لم تستطع أن تصبر أكثر من ذلك ولم يكن سوى القليل حتى وصلت إلى المعهد .



الفصل السابع

اعتادت مرغريت أن ترى ألبير من وقت لآخر ويكون موضوع الحديث معه ايفون وبما أنه كان منكسر القلب ملازم الوحدة والوحشة وتخفف أحزانه بعذوبة كلامها وحسن مسايرتها وأما ألبير فكان أطوع لها من بنانها لا يخالفها بشيء وينتظر أوامرها انتظار هلال العيد، وجل القصد من معاملته هذه صيدها بحبائله واستجلابهــا اليه ثانية . وفي مساء احــدى ليالي ديسمبر الباردة قــال لها وهما يتجاذبان أطراف الحديث بعد ان سعلت سعالا شديداً : لا أريد ان تأتي الى هنا فيما بعد فان البرد قارس لا يحتمل ! فقالت باضطراب وكيف نلتقي ؟

فرمقها بنظرة معنوية لوحدثت في الأيام الأولى لألقت بنفسها بين ذراعيه وكانت تنتظر الجواب من فيه فخاب أملها !

ثم قال لها برزانة : هل لك بي من ثقة ؟ فلم تقدر أن تجيبه ولكنها اشارت برأسها : نعم .

ـــ ان صورة ايفون عندي فيمكنك ان تأتي وتنظريها متى سنحت لك الفرصة .

فأطرقت طويلا وأحاطت بها الهواجس والأفكار المزعجة احاطة السوار بالعصم ثم تأملت في أنه كيف يحسن ان تدخل ثانية تحت سقف بيت ألبير ولو دقائق يسيرة ؟

وعندما تيقنت ذلك وتصورت ابنتها في ذلك البيت اقشعر بدنها وشعرت بأن الأرض ترتج تحت قدميها وظهر لها ان الاشجار تجري وجميع النباتات تدور وكأنما الكون قد انقلب ومناظر الطبيعة تغيرت أمام ناظريها وبينما هي كذلك قالت على غير انتباه نعم سأذهب وأرى ايفون !

غير انها بعد أن لفظت ذلك كنت تراها غارقة في بحر من الأفكار والهواجس المؤلمة ، وكانت كأمواج البحر يلاطم بعضها بعضاً ، وعيناها تمثلان أمامها صورة ذلك الوجه المحبوب الذي كان لها في الماضي وهو ليس لها الآن . ثم انها ذكرت انها اقسمت وابنها على ذراعيها على أن لا تعود الى التفكر في ألبير ومع ذلك حنثت بيمينها .

فياترى ألم تكن تحب مكسيم؟ نعم كانت تحبه حباً شديداً وقد كان يسهل عليها تضحية حياتها من أجله ولكن من جهة أخرى كانت تظن ان ألبير هو أكثر ضرورة لحياة قلبها من

مكسيم ولدها . والحالة هذه ان كانت لا تخاف الموت حباً بمكسيم فأنها من جهة ثانية لا تطيق الحياة وهي بعيدة عن ألبير .

فمن يا ترى في هذه الحياة الدنيا يشفق على هذه النفس المسكينة ويساعدها كي تنتصر على حبها وتتخلص من هواجسها المضنية التي تحاربها ليلا ونهارا ! ! من هو الذي ينجيها من شعورها ويبعد عنها آلامها التي تعذبها كثيراً ! من ذا يضمد كلوم قلبها بتلك المراهم الشافية !

فتبالك أيتها الدنيا الخادعة وتعسا لك ايها الدهر الخؤون بأهله !

بكت مرغريت بكاء مراً وتنفست الصعداء مراراً وألبير يطيب نفسها .

ولعمري انه الأولى بالتعزية والأجدر بالشفقة والمرحمة لأنه كان بحالة يرثى لها لا تنفع فيها تعزية فحري به أن يبكي وينوح على حياته التي كانت مفعمة من الصفاء والهناء فأضحت مقرونة بتراكم الحزن والعناء !

الفصل الثامن

في ذلك المساء أصيبت مرغريت بحمى شديدة وعسر تنفس كادا يذهبان بحياتها ولم تعلم والدتها بذلك إلا في صباح الغـــد فأسرعت هذه الى حجرة ابنتها لتفتقدها وتمتني بتمريضها . وبعد أن عاهدت على نفسها ان تحمل أعباء ذلك أظهرت لصهرها كدرها العظيم وقالت على مسمع منها : أنها لعنيدة جداً . هي تعرف حق المعرفة أنهـا ضعيفة وصحتها منحرفة وأن مزاجها اللطيف لا يحتمل شدة البرد والحر ومع هذا وذاك فلا تبالي بل تخرج من المأوى زمن وقوع الثلوج والأمطار .

فقال روجر يعذرها : ان الزكام في هـذا الفصل يحدث على رغم التحفظات والاحتياطات لأن حال الجو رديئة تصب الزكام وباقي العلل صباً .

— اني لا أعتقد صحة القول فعليك أن تأمرها بأن لا تخرج في مثل هذه الأوقات كما أن عليها الامتثال لأمرك . انها توالي الخروج منذ أسبوع كامل !

— الآن يجب ان نهتم بمعالجتها وتمريضها لا لومها وتعنيفها .

ثم دخلا معاً حجرة المريضة التي لم تبتسم لهما ولم تعرهما جانب الالتفات مع أنه خاطبها قليلا فلم تجبه متظاهرة بأنها نائمة فلم يبطيء ان خرج لعيادة مرضاه بعد ان أوصى أمها بالتعليمات الضرورية أما هذه فسألته بعد أن رافقته الى الباب : لا تكترث بنا كأننا مسسنا احساساتها بأمر ما .

— لا بأس بذلك فان هذا من آثار الحمى وأنا سأعود بعـــد قليل .

ان الدكتور روجر لم يضطرب من مرض زوجته لأنها لم تزل في عنفوان صَبائِها ، وهو ، هو نفسه يعالجها ومع ذلك كان يشعر بغصة في صدره فقد شعر بعدم اكتراث مرغريت به بعد كل ما أبداه لها من علامات الحب والاحترام كما أنه لسلامة قلبه نسب هذا الفتور الى شدة الحمى مع أنه كان يشعر أثناء ذلك بغم داخلي ضاغط على قلبه وسائر أحشائه وكان يخشى أن ترغب عنه وتقرع سن الندم على قبولها إياه بعلا . ولو لم تحرضه وترغبه امها لما أقدم على طلب يدها فانه مع فرط حبه لها لم تكن مخلصة له حبها كل الاخلاص وعندما كان يجالسها يشعر بنوع من الانقباض . كان فؤاده يتلهب حنيناً اليها لكنه لم يجسر قط أن يظهر لها جميع عواطفه . وكثيراً ما كاد يترجم عن احساسات

قلبه وما يكنه فؤاده من الولوع والوله بها لكنه يلجم لسانه عن التفوه ولو بكلمة واحـــدة أمامها . نعم أن كل ما يفعله المحب لسعادة وهناء زوجته فعله روجر،بل زاد عليه أضعافاً ومع ذلك لم يتمكن من التوصل الى امتلاك قلبها .

نعم طالما خطر على باله ألبير زوجها الأول وكان يشعر بقرب وقوع الخطر . وسأل نفسه يوماً عما إذا تلاقيا اتفاقا ماذا يصنعان هل يحوّل الواحد منهما وجهه عن الآخر غير مكترث بملاقاته ولا ذاكر تلك الأيام التي تقضّت .

ان روجر مع ما هو عليه من حدة الذكاء والفطنة لم يقدر ان يجيب على هذا السؤال! لكنه من هذا وغيره علم بأن سعادته ان هي إلا وقتية سريعة الزوال وان بيته مبني على الرمل .

واذ كان الدكتور روجر من ذوي الرزانة والعقل الراجح رام ان يشغل افكاره بغير ذلك فذهب الى عيادة مرضاه وكان يصغي الى وصف أعراض العلة من فم المريض بكل تأن وانتباه أكثرمنالعادة قاصداً بذلك ملاشاة همومه وإبعاد غمومه باشتغاله بأمراض غيره وكان في الساعة المعينة يرجع الى مسكنه ماشياً بدلا من ان يركب حسب عـــادته وذلك ليسرح نظره ببعض المناظر التي يصادفها في طريقه . وفي أحد الأيام رأى وهو سائر امامه مركبة تجري بألبير وكان وقوع نظر الواحد منهما على

الآخر كوميض البرق فتوقدت في قلب كل منهما نار محرقة دونها جمر الغضا . وان هي إلا لحظة حتى قال روجر في نفسه : سأبذل نفسي في سبيل حفظها لي حتى آخر نسمة من الحياة .

اما ألبير وقد التهبت نارالغيرة في فؤاده اقسم في نفسه قائلا: والله لأسترجعنها ولو كلفني ذلك فقدان حياتي .



الفصل التاسع

عندما شفيت مرغريت شرعت امها تؤنبها على قلة مداراتها لصحتها وعدم الاعتناء بها وكانت تكرر ذلك كثيراً على مسامعها ومرغريت لا تصغي اليها شيئاً . وفي بعض الأحيان كان روجر داخلا فسمع زوجته تقول : كفاني كفاني ما سمعت منها .

فبادرتها امها بالدفاع عن نفسها مؤكدة لها انها لا تقصد سوى خيرها لأن الحب الوالدي يدفعها الى ذلك حباً براحتها الخ. لكن روجر غيّر موضوع الحديث وقال. دعينا من هذا الجدال يا عمتي فإن مرغريت لم تزل ضعيفة ، قال هذا ودنا منها مستعلما عن احوال صحتها فلم تقابله بوجه باش ومع ذلك جلس بالقرب منها معتنياً بأمرها غاية الاعتناء وبعد ان جس نبضها قال مسرورا :لقد تعافيت وعادت صحتك الى حالها الاول فالحمد لله على السلامة . فقالت امها هامسة . قد حصل لها ضعف آخر .. فقال ان كان ذلك صحيحاً فهو من آثار الزكام . ثم قالت الأم لروجر بما انك هنا يمكنني ان اذهب لأغذي مكسيم .

– عودي الى هنا يا والدتي .

– سأرجع بعد بضع دقائق .

– ويلاه الى متى يجب ان أحبس هنا فقد ضاق صدري يا روجر .

– ان خروجك يا مرغريت يتعلق بجودة احوال الجـو لا بإرادتي كما لا يخفى عليك وهل تعلمين بماذا افكر .

– لا اعلم قل لي اذا شئت .

– مرادي ان امضي بك الى جهة الجنوب .

– وماذا يا ترى افعل في جهـة الجنوب ! لا . لا بل أفضل البقاء معك هنا. ان مرغريت لم تتملق بقولها هذا إذ انها كانت تعلم حق العلم ان روجر هو سندها الوحيد .

– كوني على ثقة بأني ذاهب معك .

– ولمن تترك المرضى الذين تعالجهم .

– اني اوصي بهم احد اصحابي الاطباء .

– لا بل أفضل البقاء في العاصمة باريس .

– عليك ان تطيعيني يا مرغريت بما اني انا الآمر وصاحب البيت !

قال هذا باسماً . فصمتت وحدقت به طويلاً .

– والحالة هذه ينبغي ان تغادري العاصمة .

– ان كان ذلك كذلك فأنا مريضة جداً والسفر يتعبني .

– اما الآن فانك تعافيت ولست مريضة . ولكن من الممكن ان تداهمك علة ما، وذلك مما يكدر صفاء عيشي ياعزيزتي فأريد اذا ان اتخذ كل الاحتياطات الواقية فكوني على ثقة من ذلك إذا .

– اني لا اشك في حبك لي يا روجر ولكن لِمَ تكلمني بهذا اللحن والنغمة الجديدة .

– ان حياة الزوجين يجب ان تكون مرضية وسعيدة ذات صفاء وهناء لا يكدرها اقل شيء البتة ولعمري ، ان ذلك لا يتم إلا بمبادلة تمام الثقة بينهما وينبغي على كل منهما من باب الوجوب ان يفتح قلبه لرفيق حياته هذا ويطلعه على ما يسره ضميره في السراء والضراء كاشفاً له أعماق قلبه ولو شعر على نوع مـا بألم من هذا الاقرار .

عندما سمعت هـــذا الكلام حدثتها نفسها من أنه عارف بوجود ألبير في العاصمة ولهذا قالت : حتى الآن لم أفهم شيئاً فما معنى هذه الألغاز يا ترى !

– لقد تعذبتِ ايتها العزيزة في ما مضى وقد آليت على

نفسي ان ابذل مجهودي في ان أنسيك ذلك وقـــد يعسر لسوء الحظ محو ذكر الأيام الماضية المحزنة في هذه الحياة الدنيا ثم اني لمتأكد انك تنقبضين ولو قليلا متى علمت بوجود ألبير في العاصمة بل أنا قـد رأيته رأي العين وبما اني شريكك في آلامك يجب اتجنب كل ما يسبب لنا انفعالا .

وعندسمعها ذلك امتقع لون وجهها واصفرت شفتاها وشعرت بضيق في صدرها بعد أن دمعت عيناها فدنا منها روجر واخذ يديها الباردتين بين كفيه .

— لا يحق لي ان اتكدر من دموعك هـذه عنـد ذكر ذلك الرجل ، المعروفة صفاته حق المعرفة وأنت أعـلم بهـا مني أمـا رجوعك إلى الوراء فهو من رابع المستحيلات. نعم لقد اصبحت لي وخاصتي ونحن الاثنان لسنا سوى واحد وما ألبير إلا خيال نظرته في ماضي حيـاتك . كما انك لا تستطيعين ان تنسبي إليّ القساوة والظلم وسوء المعاملة بهذا القول . فوحقك ان ذلك لا يصدر إلا عن حب مفرط لا نهـاية له بلى وتربة ايفون !! فاذا لا سمح الله اقتضى يوما مـا ان اعمل لك عملية جراحية تقتضي استعمال آلات الجراحة لأجل تمزيق لحماتك فلا تحسبين ذلك قساوة مني بل تعرفين حق المعرفة بأني اتوجع في الوقت عينه . وفي غضون ذلك كانت دموعها تسيل من تحت جفنيها المغمضين.

ـ اني طبيب كما تعرفين وصناعتي قائمة في ان أوجع لكي أشفي لكني لا أرتضي بمعالجـة جسم أزمنت علته ان لم تكن للعليل الثقة التامة بي . وعليه فان كان ذلك كذلك يجب ان تخبريني بأوجاعك وتطلعيني على سائر آلامك لأداويها فاني ابذل حياتي دونك إذا اقتضى الأمر . لِمَ تبكين هذه البكاء امامي ان مهجتي تذوب حناناً عليك عندما ارى دموعك .

ان مخاطبة مرغريت بهذه اللهجة التي ملؤها الحب وسائر انواع الملاطفة والمجاملة عطف قلبها اليه وأثر فيها تأثيراً شديداً فحاولت ان تقول باسمة :

وماذا علي أن اقول ..

ـ ربما ترغبين في الماضي ورجوع القديم الى قدمه . فأنا أشير عليك بأن تميتي هذا الفكر ولا تدعي للتذكر به سبيلا . نعم أنا لا استأهلك فإنك لأسمى مني وهذا لا يختلف فيه اثنان. وعندما تزوجتك عهدت على نفسي واجبات ان اهملها ابدا نعم سأدافع عنك حتى آخر نسمة من حياتي انظري الي واجعليني دائماً نصب عينيك ولا تأملي العود الى الماضي (هنا شعر بارتعاش يدها التي بين كفيه) قد قبلتني يا مرغريت بتمام إرادتك وكنت احبك كما اني كنت اظنك تعيسة ..

ـ نعم كنت تعيسة .

– فلندع الماضي نسياً منسياً. ان ايفون توفيت فاعتبري ان ألبير مات ايضاً فتصوري انك لن تجدي له اثراً ولا عيناً !

فأنت أنيناً يلين له الصخر الاصم لدى ذكر ذلك .

– واعلمي ان لك زوجا حنونا للغاية قد وقف حياته على رضاك وهو لا يحلم بسوى سعادتك ورفاهتك ونظرك اعظم برهان على ذلك لأنك ترين رأي العين ما أفعله استجلابا لرضاك . ان لك ولداً تتسلين به فهل نشتت شملنا بيدنا من اجل من مات.

فهمت ان تقول بأعلى صوتها : لا لم يمت الميت لا يتألم وألبير يتألم ! فأدرك روجر فكرها لذلك قال : لسنا بمسؤولين ان نشفق على من اساء الينا وهدم أركان سعادته بيده . فانعطافنا عليه والحالة هذه يقع في غير محله . لم أرَ ألبير سوى لمحة بصر لكني متأكد انه قد تغير كثيراً واصبح شاحب اللون ممتقعه ..

فانتفض بدن مرغريت وقاطعته بقولها : نعم وقد رأيته . فمسك روجر نفسه وملك عواطفه وقال : حقاً إنك لمسكينة أنت ولِمَ لمْ تخبريني بذلك .

وكيف اخبرك .

– لأنه ما من ذنب لك اذا وجدته في طريقك كما وجدته أنا مثلا . نعم أنا أعلم وانت كذلك والناس أجمع يعلمون ان هذا الرجل هو سبب تعاستنا ومجلبة لتكدير صفاء عيشنا .

ـ قالت أنا محتاجة الى الهـواء وزفرت زفرة شديدة ثم ألقت رأسها الى الهواء مغمى عليها . فخف روجر يرش وجهها بالماء البارد مع تنشيقها المنعشات وعنـــدما فتحت أعينها أخذها الى مكتبه لأنه أدفأ ووعدها بأن يسافرا معاً بأقرب وقت .



الفصل العاشر

كان الثلج يقع بكثرة من وقت الى آخر حتى ان البرد أضحى قارساً لا يحتمل فلم يعجب ألبير من طول غياب مرغريت وهو لم يكن ينتظر رجوعها إلا بعد مضي عدة ايام وهو كان يعرف حق المعرفة ضعف طبعها وانها تتألم كثيراً قبل ان تقرر أمر زيارتها له .

أما عيشته فكانت مملوءة كدرا وشقاء وهو أليف التعب سمير الضجر نديم الأفكار المزعجة وهواجسه لا تصور له سوى سعادته وتلك العيشة الرغيـــدة في ماضي الايام بين الاحباب والاصحاب وحين يأخذ به كل ذلك مأخذه ينظر حوله نادباً حظه وتكاد تخنقه العبرات لسبب تلك الوحدة التي لم يألفها .

عندما جرى مـــا جرى بخصوص أمر بلانش وغادرت مرغريت بيته ظن انها ذهبت الى امها لتقضي بضعة أيام ثم تسبل ذيل المعذرة عنه وتعود اليه . وكان يتذكر ما كانت تردده على مسامعه مرارا في اوقات اتحادهما وسعادتها وهو انها لا تقدر

ان تحتمل منه خيانة ولو صغيرة . واذا ظهر منه شيء من هذا او نوع من الخداع فانها تكرهه بقدر مـــا أحبته ثم ان حنوها يتحول الى قساوة عظيمة !

على انها حينا فاجأته وهـــو يلاطف بلانش بأرق الكلام استحوز عليه الحيا والخجل وخشى عاقبة هذا الأمر ولم يأل جهـــدا في استعمال جميع الوسائط الممكنة لاسترجاعها ولم يصادف إلا الفشل وعاملته معاملة قاسية حتى التزم ان يقطع كل أمل من جهة رجوعها. ولم يرَ من نفسه ان التذلل يليق بشخص نظيره بل شمخ بأنفه تاركا حبلها على غاربها .

وكانت بلانش خفيفة الروح حسنة الوجـــه مستديرته لطيفة المعشر لكنها غير مستقيمة المبادىء ولا حاجة الى ايضاح ذلك . .

مر أمام نظر القارىء أن مرغريت حزنت أشد الحزن بعد وفاة ابنتها ايڤون فعادت لا تعتني بزوجها ألبير كما يقتضي بل اطلقت العنان لدموعها واستسلمت الى الحزن المضني وهي تمضي أكثر أوقاتها بالبكاء والنحيب وكانت بلانش تكثر من زيارتها لها لتعزيها وتسلي ألبير وأما مرغريت الحسنة السيرة الطيبة السريرة ذات الضمير النقي فكانت تشكرها على حبها وتسألها بإلحاح ان تطيل الاقامة عندها . وفي أحد الأيام دعتها الى الذهاب معها الى المصيف فلبت هذه الدعوة شاكرة ولم تمض

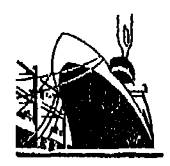
سوى ايام قليلة حتى صارت خليلة ألبير ومرغريت لا تدري من ذلك شيئاً .

وبعد ان افترق الزوجان ظلت بلانش تتردد الى ألبير حيناً من الدهر وبعد ذلك اختلفا وتحول الحب الى بغض وعلى أثر هذا انفصلا كل الانفصال . ولم يكن إلا القليل حتى تذكر ألبير تلك السريرة الطيبة والقلب النقي والعفاف الذي لا عيب فيه والحب المخلص والأخلاق المرضية المتصفة بها مرغريت ورام في الوقت عينه من صميم فؤاده أن تعود اليه في الحين ، وأنه مستعد ان يكفر عن هفواته التي بدرت منه عن غير قصد تام وكان يخال هذا الأمر سهلا لعلمه بحبها السابق وهو يناجي نفسه بقوله : اني مستعد لتحمل أعظم الأهوال اذا اقتضت الحال لإسترجاعها اليّ .

وبعد مرور عشرة أيام من اجتماعها الأخير صفا الجو وأشرقت الشمس وابتسمت الطبيعة وغردت الأطيار على غصون الاشجار ومرغريت لم تبد طلعتها فقلق من هذا الابطاء فتناول القلم وكتب لها عدة رسائل ثم مزقها وضرب بها عرض الحائط وكان يكثر من الذهاب صباحاً الى البستان الذي تتردد اليه المرضع ومكسيم ابن مرغريت باحثاً مفتشاً من كل ناحية وصوب فلم يقف لهما على أثر .

وفي ذات يوم رأى والدة مرغريت من غير ان تراه فتبعها

عن بعد الى ان دخلت البيت وكان عالماً بأنها تسكن في مسكن ابنتها في الطابق الأسفل ثم دخل بعدها ببضع دقائق وصعد درجات السلم الى ان رأى باباً عليه اسم الدكتور روجر وبعد ان قرعه فتح له فقال : اين الدكتور روجر ! فأجابته الطباخة فاتحة الباب : هو غائب وأظن غيابه يطول مدة شهر على الأقل فانه ذهب منذ ثمانية أيام مع زوجته . ولم يكد يسمع هذا حتى رجع القهقرى وهو يتلهب غيظاً وكدرا من هذا السفر غير المنتظر وأخذ يتنفس الصعداء حتى كادت روحه تبلغ التراقي .



الفصل الحادي عشر

عاد ألبير إلى مسكنه ودخل حجرته في حال يرثى لها ثم جلس وأسند رأسه بيده وجعل يفكر في أحواله المحزنة وتمثل في مخيلته مشهد اجتماعه الأخير بمرغريت وإذ تصور هزالها خصوصاً بكى بكاء مراً لأنه لم يظهر لها أفكاره حينئذ ، وندم على تركه إياها تذهب من غير أن يستوقفها ويصحبها معه إلى بيته الذي هو بيتها أيضاً .

أما أمر سفرها إلى الخارج فلم يكن يخطر على باله قط وقد ظنها قصدت بذلك قطع المواصلات بينها وبينه .

وعلى أثر الانفصال الذي جرى منذ خمس سنوات ترك المسكن الذي أقاما به بعد زواجه وعاد إلى منزل والدته حيث اتخذ الحجرة التي كان يقطنها في مدة صباه وبعد وفاة أمه بقي في البيت نفسه لأنه كان جميلاً بعيداً عن الحركة وضوضاء الناس يكتنفه بستان صغير يحتوي على كثير من الأزهار المختلفة والرياحين المتنوعة وتكسو أرضه الخضرة النضرة والأشجار التي

تغرد على أفنانها الأطيار . وكانت حجرته مطلقة الهواء تشرف نوافذها على البستان وعلى أرضه التي كانت تعلوها الخضرة في أكثر الفصول .

وكان قد شرع يهتم كل الاهتمام بتزيين هذه الغرفة وتحسينها من حين وعدته مرغريت بزيارتها وقد وضع فيها شيئاً من الأثاث والأدوات التي كانت عنده يوم كانا معـــاً لكي يحرك عواطفها ويحيي في قلبها ذكر أيام ما كان أحيلاها وعلق في الجدران صورة ايڤون ومرغريت ووالدته .

وإذ رجع من بيت الدكتور روجر وأجال نظره طويلاً في جدران الحجرة الأربعة وتأمل في عظيم اهتمامه وشديد اعتنائه بالزخرفة التي تعب بها عبثاً زاد غمه وضاقت الدنيا في عينيه حتى كاد يفقد رشده . نعم قد اتهم بوصمة الخيانة وعلى أثرها انفصلت عنـــه زوجته متخذة آخر بدلاً منه وفقد ابنته ثم توفيت أمه ولا شقيق يحن عليه ولاخليل يميل إليه ولاصاحب يسكن لوعته ويخمد حرقته فتراه قـد أصبح شريداً طريداً يندب سوء حظه ويبكي على أيامه الماضية .

وكان بعـــد أن اجتمع بها في المرة الأخيرة انتعش فؤاده وحييت آماله وشعر بأن لا طاقة له على العيشة بدونها ولا اصطبار على الافتراق عنها ، وعليه فـلم يقنط من استرجاعها . وقد طالما قرع سن الندم على تركه إياها تقترن بروجر وكاد في

بعض الأحيان يتميز من الغيظ والغيرة عندما يحصر أفكاره وتزيد هواجسه مفتكراً كيف ان مرغريت تقيم مع روجر وتسافر معه حيث اتجه وتسير مستندة على ذراعيه وهو ، هو زوجها الحقيقي لا روجر . الذي لا يقدر أن يكلمها كلمة واحدة ولا أن يكاتبها حتى لا يحق له أن يراها وهذا حال الزمان والدهر بالناس قلب .

نعم ان ألبير لو وجد روجر في البيت عندما ذهب إليه لهجم عليه وقبض بيده على عنقه وخنقه انتقاماً منه شافياً غليل غيرته .

الفصل الثاني عشر

ان مرغريت اشتهت ورغبت من صميم فؤادها بأن يكون روجر مانعاً حصيناً بينها وبين ألبير ولذا تراها أطاعته منقادة لمشوراته بكل هدوء وسكينة.

وقد أقاما بضعة أيام في مدينة كان الشهيرة بجمال سمائها وحسن هوائها ورنق مناظرها الطبيعية وأما صحة مرغريت فانها قد تحسنت تحسناً بيّناً . كيف لا وروجر قد جعلها موضوع أفكاره وقيد هواجسه يعتني بهـا اعتناء الأم الحنون برضيعها يعطف عليها ويميل إليها ويلاطفها غاية الملاطفة كأنها ابنة صغيرة وهذه المعاملة الفائقة الوصف أثرت في نفسها تأثيراً شديداً وكانت تشعر بامتنان فائق لا تستطيع أن تكافئه عليه ما دامت حية ولم يكن إلا القليل حتى فارقتها تلك الهموم والغموم ونسيت تلك الأحزان السالفة ولم يعد يزعجها بعد ذلك ألبير ، ولا كل مايتعلق به ، ولم يحل لها سوى الاقامة بقرب زوجها روجر وطلب السعادة بمساكنته .

لم يخطر على بال روجر أنّ زوجته هـــذه اقتربت من ألبير وكلمته وقد كان يظن انها صادفته بغتة في الطريق نظيره ولأجل ذلك لم يخامره حقد أو غيظ منها نظراً لما أظهرته من التأثرات لدى ذكر ألبير بل ان ذلك الانفعال الطبيعي دلالة صريحة على رقة شعورها وطيب قلبها ولما رأى انها مالت إليه كل الميل سر غاية السرور وزاد اهتمامه وفاق ولوعه وهيامه بها حتى انه جعل كل أوقاته وقفاً على خدمتها وملاطفتها .

أما مرغريت فإنها قدّرت محبته حق قدرها وزادت ثقتها به ولهذا أرادت أن تطلعه على مكنونات فؤادها وكل ما حدث لها مع ألبير . ففي إحدى المرات بينما كان الحديث جارياً بينهما والموضوع موافقاً وجدت فرصة ملائمة لإخباره فقالت : أريـد الآن أن أخبرك ... عندما لفظت هذه الكلمات ظهر على وجهه اضطراب عظيم وارتجف بدنه ولم يقدر أن يضبط نفسه وقال بماذا تخبرينني : فعدلت عن عزمها الأول وغيرت معنى الجملة بشيء آخر ، وعلمت منذ تلك الساعة انه يصعب عليها جداً أن تخبر روجر باجتماعاتها بألبير ، مع انها كانت تود أن تكون له معرفة تامة بها، لأنه أدرى منها بحل المشاكل وتذليل الصعوبات، وكانت من حين زواجها به تشرح له أفكارها وسائر عواطفها إذ أنهـا كانت متحققه حبه الثابت الذي لا يتزعزع لكنها لم تجسر على التكلم في هذا الموضوع البتة .

ان روجر على أثر اقترانه بها لم يطلب منها حباً لأنه كان

عالماً بهمومها وأحزانها فلا معنى لتكليفها الحب حينئذ لأن قلبها مشغول بغير شيء، ولكن كان في أثناء السفر يجتهد غاية الاجتهاد في اكتساب قلبها بكليته واشتهى أن تحبه كما يحبها وخلع عنه ثوب الإرتباك وأظهر لها من الجرأة والقوة ما لم تكن تعهده فيه قبلاً فسلوكه هذا صدها عن المداخلة في مثل هذا الموضوع .

ان مرغريت كتبت مراراً إلى والدتها تخبرها بوفرة انشراحها وفرط سرورها وما هي عليه من حسن الحال وصفاء البال مادياً وأدبياً . وذلك مما لا جدال فيه فإن سرورها في تلك البقعة انساها كل ما كان يزعجها ويقلقها ناهيك عن بقعة قد اشتهرت بمناظرها الطبيعية الفتانة فاعتدال الهواء وصفاء السماء وزرقتها ونقاءها وبهجتها وجمال الافق الذي يسحر الألباب ويسبيها حيث تحته البحر المتوسط الذي تتكسر أمواجه على تلك الشواطىء التي تأخذ بالعقول كل مأخذ ، هذا فضلا عن جمال مناظر ما يجاورها من الجبال والاكام الخضراء التي بمجرد رؤيتها يحيي القلوب المنكسرة وكانت مرغريت تشعر بأن قلبها يتسع وينفتح رويداً رويداً حتى يكاد يحتضن الفضاء وزرقة القبة الخضراء .

وكانت في صباح كل يوم تسير مع روجر على شاطىء البحر حيث تصادف بائعات الأزهار المختلفة الألوان والأشكال فتشتري منهن باقات ذات روائح عطرة تنعش القلب وبعد سير ساعة من الزمان تعود إلى الفندق مستندة على ذراع زوجها وكانت عندما

يعرب لها عن شعائر حبه تصغي إلى كلامه باسمة وتميل بكليتها إليه ثم تشكره شكراً جزيلاً على هذه الاحساسات الشريفة .

وفي ذات يوم سمعت من بعض الجالسين نبأ المقامرة التي تجري في ملعب مونتي كارلو الشهير فقالت علىالفور لروجر : وأنا أيضاً أرغب في الذهاب إلى هناك لأجل المقامرة . إذ أنها كانت تشعر من نفسها باحتياج إلى التنقل من مكان إلى آخر لتغيير المناظر الجديدة على توالي الأوقات وفي أثنــاء ذلك اليوم كانت تحدث روجر بالمقامرة ومونتي كارلو والذهاب بأقرب وقت والربح وما يتعلق بذلك والخلاصة لم يدر في خلدها ذلك اليوم سوى المقامرة ومكانها . أتظن اني أربح يا روجر .

– إذا كان الربح غاية متمناك فليكن لك ما تشتهين !

– لا أقول لك أن ذلك غاية مشتهاي لكني أسألك مــاذا تظن بذلك لعلي أكون صاحبة بخت فما هو اعتقادك .

– اعلمي يا عزيزتي اني لسوء الحظ لست موسى ولا حزقيا ولا ايليا فلا تكلفيني بأمر النبوات فإني عاجز عنها .

– لكن يحلو لي أن أمتحن البخت والنصيب ألا يلذ لكذلك

– لا . ان ذلك ليس من رغبتي ولا يحلو لي .

– بالحقيقة يا روجر ان أخلاقك غريبــــة وطباعك عجيبة أقول لك بكل حرية انك لست من أهل هذا العصر !

فامتعض روجر من هذا الكلام ولم يحر جواباً بل قال لها انه آسف على هذه الأوقات العزيزة التي بها لا يقدر أن يفارقها ولا دقيقة واحدة .

فأجابته مرغريت بمثل كلامه .

— أصحيح ما تقولين .

— وهل تستغرب ذلك أو تشك فيه .

فاعتقد روجر إذ ذاك انها تبادله الحب .



الفصل الثالث عشر

في صباح سفرهما الى مونتي كارلو لم يتكلم روجر سوى كلمات قليلة دون تبسم أما هي فكانت بعكس ذلك غير انها انقبضت فيما بعد عند ما رأته لا يشاطرها انبساطها وابتهاجها ولذلك فكرت في أثناء هذا السفر على رغمها في ألبير وهشاشته وبشاشته ومزاحه وعند بلوغهما المكان المقصود قالت له : ها قد افقت من نومك فالحمد لله !

فأراد روجر ان يضحك ليسرها . وبعد تناول الطعام صعدا على سطح عال يكشف على الجهات الأربع حيث تتجلى للناظر بهجة الطبيعة وجمالها البديع فهتفت: أنظر ما أبدع هذه البقعة وما أجمل هذه المناظر .

وكانت تنظر الى جميع المارين من الجنسين وتسر إذ تراهم سائرين ازواجاً إذ تعتقد انهم أحباب وتقرأ في عيني كل شخص ما يجول بخاطره من حب المال .

ثم دخلا محل اللعب الرحب بهذا المقدار وجالا في جهاته الأربع ينظران الى اللاعبين الكثيرين وبعـــد ذلك جلست مرغريت ووضعت قطعــة ٥ فرنكات على ٤ اعـداد فربحـت وهكذا ظلت تلعب مدة ساعتين وروجر بالقرب منها لايفارقها فربحت ربحــاً وافراً دون خسارة فلس واحد . وقد سرت سروراً عظيما ليس بالنظر الى المال لأنها ذات غنى وافراً وهي لا تحب الحصول عليه بهذه الطريقة بل لأنها قويت على البخت وغلبته . وبعد ذلك بمدة غير يسيرة قال لها : ألم تكتف يا مرغريت ؟

— نعم قد اكتفيت وها قد ربحت أيضاً مقداراً أكثر من الأول فخذ هذه الدراهم عني قالت هـــذا وهي تفتخر بحظها ونصيبها . ثم حانت منها التفاتة على حين غفلة فرأت صديقتها بلانش القديمة واقفة بالقرب منها ناظرة اليها وهي تبتسم فذكرت مرغريت ذلك الشقاء الذي سببته هذه المرأة لها وتأملت في ابتسامتها فاذا هي ابتسامة ازدراء ثم مرت امامها واضعة يدها على خصرها وهي تجر ذيول التيه والاعجاب ولا تسل عن الروائح العطرية التي كانت تفوح منها فانها قد ملأت المكان على رحبه وكان نظر مرغريت يتبعها مراقباً حركاتها وسكناتها وما هي عليه من التبرج المفرط . وإذ بلغت جهـة مقـابلة لمرغريت استوقفها أحد اصدقائها وبعد ان تبادلا الكلام وقتاً وجيزاً

التفت هذا الشخص صديقها الى جهة مرغريت ففهمت هذه بأن محور الحديث يدور عليها ، وبأسرع من لمح البرق مسكت بيد روجر قائلة : اخرج بي حالا من هنا دون ابطاء !

– الحمد لله على حسن النهاية فلنخرج ، امـا مرغريت فانها استشاطت غيظـاً وغضباً وامتقع لونهـا ولم تقدر ان تملك كدرها وحينا وصلا الى خارج المحل سألت روجر هل رأى تلك المرأة .

– وأي امرأة تعنين اني لم أرَ امرأة فدعينا من كل هـــذا وتعالي نذهب الى ذلك البستان الأخضر الذي نراه في تلك الجهة ونجلس تحت ظل أشجاره .

– نعم سر بي حالا الى هناك فاني أُطوّع لك من بنانك فلا أقدر ان ابقى هنا ولا دقيقة واحدة خوفاً من ان أرى تلك الملعونة مرة ثانية .

– كوني مطمئنة لن تريها بعد . وعندما انتهيا الى البستان الذي يقصدانه جلسا حيث لا تراهما عين . ثم ما هي إلا هنيهة يسيرة حتى هطل الدمع من عينها بكثرة وجعلت تبكي متذكرة حياتها المرة نادبة سوء حظها وهي تتمثل عذاباتها وسائر آلامها أمام عينيها وعبراتها كسيل مدرار وروجر لا ينبس ببنت شفة بل لزم السكوت لعلمه ان الكلام لا يجدي نفعـا في مثل هـذا

الوقت . وبغضون ذلك كان يرى ان الحيل قد ضاقت به وعيل صبره ولم يدع واسطة إلا استعملها اكتساباً لرضاها وجعلها سعيدة وذلك لكي يعيشا عيشاً هنيئاً ذا صفاء وهناء .

وبعد ان تعبت من البكاء وخارت قواها وضعف عزمها اسندت رأسها على ساعده وجعلت تمسح دموعها الكثيرة وهو ساكت كالأول .



الفصل الرابع عشر

ان مرغريت كانت تعتبر ان سكناها مع رجل ووجودها
تحت سقف بيته قبل أن يموت زوجها الاول هو من أشد العار
واقبح الهوان عليها أمام بلانش . وهذا الفكر أي انها ذات
زوجين كثيراً ما كان يعذبها ويكدر صفاء عيشها إذا وجد لديها
فيه صفاء وهناء ويدع في قلبها جرحاً بليغاً بل جروحاً قتالة
وقد ادرك روجر حق الادراك جميع ذلك وجعل يراقب
حركاتها وسكناتها ويقرأ افكارها بسهولة الى ان قال في نفسه
آخر الأمر : ان السكوت لا يصلح إلا في بعض أوقات والصمت
في غير وقته يكون ضرراً محضاً وهذا لا جدال فيه بل هو أمر
لا يختلف فيه اثنان وحيث ذلك كذلك لا بد لي من ان احادثها
بهذا الشأن. ففي مساء ذلك اليوم ابتدأ بالكلام في هذا الموضوع
وجعل يلعن بلانش وينسب اليها الخفة والطياشة وان مبادئها
غير حسنة الى غير ذلك من الكلمات التي خففت عن مرغريت
بعض التخفف الى ان قالت: آه من هذه الشقية والخليقة الجهنمية
لعمري ان الناظر اليها يدرك على الفور بمجرد رؤية عينيها انها

عادمة كل حياء فاقدة الشرف الذى هو حلية الانسان في هذه الحياة الدنيا ولم يكفها هذا بل انها تكذب على الله والناس بشعرها المصبوغ وحمرتها الصناعية فهي تريد ان تحسب في ريعان العمر على رغم سنيها الطويلة !

— وحقك اني بغضتها منذ أول ساعة عرفتها بها . كيف لا وهي تخاطب الرجال بوقاحة هذا مقدارها فضلا عن الألفاظ المخالفة الآداب التي تتفوه بها بجسارة كلية . نعم اني سمعت شيئاً عن قلة آدابها وعظم وقاحتها قبل ان أراها .

— ومن اخبرك بأخلاقها السيئة ورداءة آدابها .

— اطلعني على كل ذلك شخص يعرفها حق المعرفة .

— أظن هذا الشخص هو ألبير نفسه هو الذي انبأني بكل شيء وقد طالما حرضني على ان اكلفها بزيارتي وكثيراً ما كان يطنب في حسن اخلاقها وخفة روحها واصفاً ما هي عليه من لطافة المعشر .

— اما أنت يا مرغريت فاجتهدي في ان تنسي تلك الأيام السوداء المحزنة .

— وانى يمكن ذلك وتذكرها ألزم لي من ظلي فهو يتبعني في كل زمان ومكان .

— ابعدي عنك هذا التذكر المضني ، وهل لها من يد يا ترى في حياتك الحاضرة ؟

— نعم تقدر تتكلم علي ولا شك انهـا اخبرت بقصتي ذلك الرجل الذي استوقفها في محل المقامرة .

— دعي عنك هذه الوساوس الجارحة وكيف لا تقدرين على ذلك وأنت ذات ارادة حرة فاستعمليها إذا لطرد مـا يؤلمك ثم تناول كل منهما جريدة وبعد هنيهة قال : يلذ لي تدخين سيجارة في البستان قبل النوم أما انت فاتبعي مشورتي وأريحي افكارك وارقدي بسلام .

خرج روجر واضجعت هي على سريرهـا راغبة في النـوم لكن عينيها كانتا تنفتحان على رغمها فلم تجد والحـالة هـذه الى النوم سبيلا بل شرعت تفتكر في كل ما جرى لها كالسابق ومن انها ستعود قريباً الى باريس وأمـا ابتعادها عن ألبير فهـو من اصعب الأمور عليها ! بل كيف تتجلد عندما تراه شاحب اللون حزين النفس وكيف لا تذوب شغفاً عند سماع صوته الرخيم الحلو . ومن جهة أخرى كانت تتألم كثيراً لأن اقتران روجر بها لم يكن كنائسياً وبلانش تعرف هذا. فصعد الدم الى رأسها عند هذا الفكر وقالت : ربما تظنني نظيرهـا ثم عزمت على محـادثة روجر بهذا راغبة في استدعاء أحد الكهنة ليبارك سر زواجها في الكنيسة ولم تتصور قط ان روجر يغضب من طلبها هذا بل

ظنت عكسه وبعـد نصف ساعة عـاد من البستان ودنا من سريرها ناظراً في محياها فتناومت وبعد أن اطفأ النور ذهب الى سريره . غير انه لم يذق لذة النوم في تلك الليلة وفكر في ان رجوعه الى باريس صار ضرورياً للغاية بعد غيبة هذا مقدارها وان مرغريت تعبت من مشقة السفرفكفاها تبديل هواء ورؤية مناظر، وها هي الآن تتوق الى الراحة البيتية .عرفت قلبها حق المعرفة وعلى أي شيء ينطوي وزاد حبها لي اكثر من الماضي وذا يكفي بالوقت الحاضر إذ ان الود يزداد نمواً مع الأيام وليس بوسعي ان أمحو ذكر ايامها الماضية ولو كان بامكاني لفعلت من زمان طويل . أنا نفسي لم أعاملها بسوء قط . وما هو ذنبي يا ترى، ان كانت الاساءة بدت من ألبير والخيانة من بلانش . فليس من مقدرتي ان انتقم منها . فاذا مـا هي الجريرة التي ارتكبتها والجناية التي اقترفتها يا ترى وهل من العدل ان اعذب في تكفير الإثم عن غيري . لعمري ان في ذلك لعجباً . نعم ان ذنبي الوحيد هو اني اعبدها واقف حياتي لها وهي تبتعد عني . اتوق اليها ولا أمل من مشاهدتها ولو جالستها كل أيام عمري أما هي فان حضوري وغيابي لديها سيان واتيقن انهـا تفضل غيابي وبعدي . أنا أسعى في ان انسيها أحزانها وأجعلها سعيدة وهي تقابلني بحرماني السعادة التي لم أذقها من دون كدر حتى

الآن . (سمع في غضون ذلك تنهدها فعلم انها تفكر نظيره)
ترى في أي شيء تفكر في هذا الليل الدامس . اني اقسم بالسماء
وعلى الأرض ان احفظها لي ولو قاومني الكون بأسره

بل سأعبدها عبادة ولو حاربتني نوائب الزمان وسأوفر لها
أسباب السرور ما دمت حيـــاً وعيناي تنظران شمس النهار
ونجوم الليل .



الفصل الخامس عشر

عاد الأمل الى قلب ألبير رويدا رويدا بعد أن سحقه اليأس وقتله الملل ، وقال ان مرغريت لا تقيم مدة طويلة خارج باريس لأن ذلك لا يوافق مهنة روجر فرجوعها قريب إذا وبعد ذلك يشاهدها في حجرته المعدة لاستقبالها المزينة برسمها وذكرها . وكان يخرج غالباً من بيته للنزهة وحينما يصادف بعض اصدقائه القدماء يسلم على هذا ويضغط على يد ذاك ويبش في وجه الآخر ويسر خصوصاً بعشرة أولئك الذين عرفـــوا مرغريت عنده ويتعجب عندما لا يذكرها واحد منهم .

وفي أحد الأيام مساء ذهب الى مكان عمومي حيث كان جمهور عظيم من الناس ليلهو عن افكاره المحزنة ولم يكن يبالي بأنغام الموسيقى واصوات المشخصين لأن قلبه كان يردد دائماً اسم مرغريت .. كما انه لم يكن يعبأ بالسيدات الجالسات بقربه ويغضون ذلك قال بنفسه : نعم ملت الى النساء بماضي الزمان وأما الآن فلا يسطو على قلبي سوى مرغريت . وعندما انتهى

الفصل نهض عن كرسيه قاصداً الخروج فسمع صوتاً يناديه . فحول رأسه الى جهة الصوت وإذا بسيدة هيفاء القد مليحة الوجه خفيفة الحركة تتبعها فتاة لطيفة المنظر لابسة ثوباً من الحرير .

– أأنت السيدة فارز ؟

– نعم أنا هي وصافحته بوداد باسمة ثم تقدمت ابنتها ومدت يدها لمصافحة ألبير .

– أكاد لا أعرف حضرة ابنتك العزيزة !

– نعم فانها تغيرت كثيراً عن الماضي أما أنا فقد تقدمت بالسن ومنذ زمن طويل لم أرك مع اني أسر بمشاهدتك سروراً لا مزيد عليه لأنها تذكرني بتلك الأيام السعيدة ! ولا تبرح من فكري تلك الصداقة القديمة وهل يسوءك ذكر الماضي .

– بالعكس فان ذلك يسرني .

– أخبرني ماذا تصنع وأين تسكن وكيف تعيش ولم لا تزورنا .

– اسكن باريس وأعيش وحدي في بيتي وفقدت والدتي منذ ٦ أشهر وأرى المصائب والأحزان من كل جهة ولا أريد ان اثقل على أحد .

ـ كيف تعيش وحدك .

ـ ولم لا اعيش وحدي .

ـ لم لا تزورنا. اني اؤكد لك ان خبر انفصالك عن مرغريت قد غمنا جداً . . وكنت احبها من كل قلبي .

ـ ذلك الحب مضى الآن .

ـ أراها الآن تبتعد عني ولا أزورها إلا مرة واحدة في السنة واظن انها تفضل قطع هذه الزيارة .

ـ وهل رأيتها من عهد قريب .

ـ لا . اني لم ارها من عدة أشهر لكني التقيت بوالدتها في الاسبوع الماضي فأخبرتني بأن ابنتها سافرت الى الجنوب .

ـ قل لي صريحاً ألا يؤلمك ذكرها .

ـ لا وحقك .

ـ مسكينة مرغريت فانها أحبتك كثيراً .

ـ والهفتاه على أيام مضت !

ـ نعم لقد احبتك جـداً وانت جرحتها جرحاً بليغاً بسلوكك . . واظنها الآن سعيدة راضية بعيشتها . . وفي أثناء كلامها هذا نظرت أمارات الألم على محياه فهتفت : آه ربما تتألم من كلامي هذا ! ثم مدت له يدها ثانية دلالة على ميلها اليه .

ـ هل تأذنين لي يا سيدتي بزيارتك .

ـ من كل بد اننا نستقبل الزائرين يومي الاربعاء والسبت وحينئذ تسمع عزف ابنتي هـــذه على البيانو لأنها ماهرة بفن الموسيقى . (عند ذلك توردت وجنتا ابنتها اودت وخفضت عينيها) لو لم تمت ايقون لكانت الآن صبية إذ انها من عمر ابني جان .. ثم تنهدت طويلا وقالت : أرى ان لا مجال للكلام هنا لكن زرنا بأول فرصة تسنح لك وحينئذ نتحدث عن جملة أشياء وان كنت تأبى الزيارات الرسمية في الايام المعينة للاستقبال فيمكنك الحضور نحو الساعة الثانية بعد الظهر اي يوم شئت وهل بلغك خبر ترملي .

ـ لا أعرف شيئاً من هذا .

ـ نعم ان يد المنية قد اختطفت زوجي منذ سنتين .

ـ اقبلي فروض تعزيتي اذا .

ـ اشكرك غاية الشكر وقد أسفت جداً وبكيت بكاء مراً لحلول هذه المصيبة وحزنت أياماً طويلة ورأيت ان ذلك لا يجدي نفعاً فالأولى ان أسلي نفسي وابنتي هـذه لأن الحياة في هذه الدنيا قصيرة ونحن اللاحقون في سبيل الآخرة وهم السابقون عاجلا كان ذلك او آجلا ، لا تنس ان تزورنا عن قريب . ثم ودعته وعادت الى مكانها. جلس ألبير بعد ان أفعم قلبه سرورا لأنه وجد إحدى صديقات مرغريت وكان من وقت لآخر يلتفت الى حيث هي جالسة فرآها مرة تكلم امرأة على القرب منها فعلم انه موضع حديثها .

ان مدام فارز هذه عرفت مرغريت في المدرسة إذ كانتا تلميذتين ودامت تلك الصداقة المكينة بينهما الى بعد زواجهما وبعد ذلك اضحت الألفة أشد من قبل وكانت الاسرتان تتبادلان الزيارات بتواتر وتذهبان الى التنزه معاً وكانت على اتفاق تام في الأدب والذوق والمعشر ومـــا شاكل هذا وكان ارتباطهما هذا ينمو مع مرور الأيام .

وإذ طرق مسامع السيدة فارز انفساخ ألبير عن مرغريت أسرعت اليها سعياً بالصلح بينها وبين زوجها غير ان مرغريت رفضت مقابلتها لأنها كانت تعرفت ببلانش قبـــلا وفضلا عن ذلك انه تبادر الى ذهنها ان ألبير نفسه ربما أحبها وهي لم تلاحظ هذا الأمر نظراً لما هي عليه من السذاجة والثقة الكبيرة وتعلقها الشديد به .

مما لا ريب فيه ان اوهام مرغريت هذه كانت تغاير الحقيقة على خط الاستقامة إذ لم يكن بينهما سوى صداقة خالية من كل عيب وغاية وألفة في منتهى السذاجة ولم تكن السيدة فارز من اللواتي يقبلن على انفسهن كذا أمور مشينة وأميال معيبة . نعم انها كانت تلبس الملابس الثمينة الأنيقة وتتزين وتتبرج لتستلفت اليهـــا الانظار وتعجب الناظرين فهي كغيرها من جنس النساء لكنها كانت تهزأ وتزدري بالعشق والعاشقين والحب وذويه ولم تكن تبالي إلا بولديها اللذين كانا قيد اهتمامها وموضوع افكارها

وتدبير منزلها كما يقتضي فانها كانت على جـانب عظيم من حسن ادارة بيتها .

وكان زوجها فارز مهندساً ذا ثقة تامة بها وبحسن امانتها وعفافها ولهذا جعلها مطلقة الحرية في شؤون ادارة البيت فهي تأمر وتنهي وتزور وتستقبل الزائرين والزائرات وتعمل المآدب الفاخرة حسبما يروق لهـــا . ومن طبعها الميل الى الاكثار من الاجتماعات العالمية التي تتلوها الزيارات وصنع المآدب الى غير ذلك ممـــا لا غنى للسيدات عنه . وكانت تحب زوجها باخلاص وأمانة زائدين ولم يكن هــذا الحب على سبيل العشق . وبعــد وفاته تذكره غالباً وتدعوه بالصديق الأعظم وقد صبرت على فراقه الأبدي هذا كما لو كان مسافراً .

أمـــا سرور مدام فارز بملاقاة ألبير فحدث عنه ولا حرج كيف لا وقد قضت بعشرته وعشرة زوجته الأيام الطويلة بدون ان يكدر صفوها شيء وقد اخبرت ابنتها اودت بكل ما جرى له مع زوجته من غير ان تضرب صفحاً عن بعض التفاصيل لأنها كانت تكلم ابنتها وتعاملها كأنها امرأة طاعنة في السن معتبرة ان الفتاة المدعوة الى العيشة في الهيئة الاجتماعية تفتقر ان تعرف ما هو العالم واي شيء تجري فيه من الخـــير والشر والحسنات والسيئات على ان هــذه الفتاة تحب ان تكون حسنة التدبير في أساليب المعيشة واسعة العقل قادرة على تدبير نفسها بنفسها فهذا

هو اعتقاد السيدة فارز ، وعلى هذا النوع والقياس ربت وثقفت ابنتها التي كانت تصغي بانتباه الى أحاديث والدتها وتتأمل فيها طويلا . وبعد ان روت لهـا حكاية ألبير ومرغريت سألتها : قولي يا ولدتي : ترى هل أخطأت مرغريت باقترانهـا ثانية او اصابت .

– لا شك يا ابنتي العزيزة انها اخطأت كثيراً وهذا كان قول المرحوم والدك .



الفصل السادس عشر

بعـد مضي يومين أتى ألبير وقرع باب بيت مدام فارز نحو الساعة الثانية بعد الظهر فسار بـه الخادم إلى قاعة الاستقبال فنظر إلى ما حوله فوجد كل شيء باقياً كما كان أولا بدون أقـل تغيير وقد تبادر إلى ذهنه فوراً زمان كان يأتي مع مرغريت ولهذا أخذ قلبه يخفق بسرعة عظيمة حتى كاد يشعر ان فؤاده يتقطع،وترقرق الدمع في عينيه حين خطرت في باله سعادة الماضي وتعاسة الحاضر وظلام المستقبل . وبعـــد هنيهة حضرت مدام فارز وسلمت عليه قائلة : حقاً ان زيارتك هذه سرتني سروراً لا يوصف واني أراك حزيناً كئيباً . قص علي همومك لعـل في ذلك فرجاً لك .

– لقد صدقت يا سيدتي فإني حزين النفس كئيب تعس .

– أنا شعرت بكل هذا لمّا لمحتك حيث اجتمعنا ويلزم ان تعرف حق المعرفة بأنك أنت الملوم إذ أقدمت على عمل مناف

لسنة الآداب فكانت النتيجة ان أزعجت زوجتك وأتعبت نفسك وخربت بيتك بيدك .

– خطئت يا سيدتي وخطيئتي عظيمة نعم كنت مجنوناً والجنون فنون وهاأنذا تريني أكفر عن خطيئتي بعيشة مملوءة من اليأس والقنوط والشقاء بل يا لها من عيشة مرة لا تطاق .. واني حتى هذه الساعة لا أزال أحب مرغريت وأميـل بكليتي إليها أكثر من الأول . صرح بهذا وهو يشعر بتعزية عظيمة في قلبه . على انه رأى بجانبها اللطف والجودة والاصغاء التام لحديثه فتسلى نوعاً وقال : ما أطيب قلبك أيتها الصديقة !

– اني لا أرى دواء لدائكما .

– نعم لا دواء لذلك .

قال هذا على غير ما في ضميره إذ لم يقطع الأمل من استرجاعها

– ان الدواء الناجع الوحيـــد هو النسيان وترويض النفس بالتنقل والأسفار من جهة إلى أخرى – كنت فيما مضى أميل إلى السفر أما الآن فلا .

– ألم تزل تحب بلانش ؟

– اتبّعت ذلك حيناً لكني لا أختارها زوجة لي ولو كانت ملكة جالسة على سرير الملك .

وهل تركتها من زمان طويل ؟

— منذ عشرة أشهر .

— تباً لهذه الدنيا ما أمر الحياة فيها ! أما الآن فقد مضى ما مضى ومتى اطلعت على مرهم شاف لجرحك فلا تتأخر عن المجيء إلى هنا، فإني أساعدك بقدر امكاني . اني أتذكر ايڤون في مكان اصطيافنا الأخير وسأريك رسمها في حجرتي وكنت أحبها وأميل إلى أمها كثيراً .

— اني أعهد ان من طبعها الأمانة فلم تجافيك يا ترى ؟

— أظن انها لا تريد أن ترى أحـــداً من الذين عرفوها قبلاً وسبب ذلك واضح كالشمس في رابعة نهارها . وربمـا الدكتور روجر لا يميل إلى معاشرة الناس ومرغريت لا تزور وتستقبل إلا في النادر وهل وجدتها سعيدة .

— أظن ذلك . لها ابن صغير جميل جـــداً وهي تحبه محبة عظيمة .

— ألم تنظرها من عهد الانفساخ .

— صادفت مرة والدتها لكنها كانت وحدها .

— تجنب أن تراها ما استطعت لأنك ربمـــا وجدتها كئيبة وهذا مما لا يسرك .

– ولماذا تكون كئيبة وأراني لا أخطر في بالها ولا علاقة لها بي الآن .

– ما هذا إلا كلام . . (ان هذه اللهجة أحيت الأمل في قلب ألبير إلا أنه كتم سره ولم يعرب عما في ضميره) .

– لا تتقابل كوني مطمئنة من هذه الجهة .

– هكذا آمل .

– ان لساني عاجز أيتها السيدة عن شرح عظم تأثري الذي شعرت به عند دخولي بيتك العامر فقد ضنكت من كثرة الهموم وأشعر بأني هرمت ولكن رأيتني ساعة زيارتك عاد إليّ نشاط الشبيبة .

وفي أثناء ذلك دخلت اودت وهي تميل بقدها الأهيف وصافحته وجلست .

– اني ذكرت ابنتي هذه بأنك كنت محباً لها بالماضي وقد فطنت لعدة أشياء .

– أصحيح هذا أيتها الآنسة ؟

– نعم أتذكر جملة أشياء أذكر ايڤون الصغيرة وكيف

كانت لابسة ثوباً أزرق يعلوه تخريم أبيض وذلك في عيد الميلاد. ان كلمات اودت هذه خرقت قلب ألبير الذي لم تندمل جراحه بعد فرفع يده أمام عينه قاصداً إخفاء دموعه المتفجرة فلحظت ذلك أم اودت فقالت : لقد آلمته يا عزيزتي !

– لا لم تؤلمني بل سرتني كثيراً لمـــا أبانت لي لون الثوب وشكل التخريم .

– تشجع أيها الصديق القديم اننا نذكر ايڤون على مسامعك كي نسرك .

– أراني سعيداً بلقائكما أيتها السيدة الفاضلة !

– كان يجب أن تبحث عنا قبل اليوم مع ذلك نسامحك على هـــذه الهفوة بل الذنب العظيم بشرط أن تتناول العشاء عندنا مساء الأربعاء القادم .

– أرجوك أن تعفيني من هذا .

– لابد من مجيئك فإننا نتحدث ونمرح ونسر باجتماعنا إذ لا غريب بيننا البتة .

عاد ألبير إلى منزله في ذلـــك المساء منشرح الصدر خفيف الروح قرير العين ناعم البال وعندما فتح مكتبه وجد على مائدته

علبة خشب ولما قرأ العنوان تحقق انــه كتابة مرغريت فاعترته نوبة عصبية زعزعت أركان قواه ثم رفع الغطاء بسرعة فوجـد بطاقة بيضاء على ما هو أشبه بسرير من الورد فقرأ ما فيها وإذا بها هاتان الكلمتان : « إلى ايفون » عند ذلك أحس بأن موجة حب غمرت فؤاده وفتح ذراعيه منادياً زوجته المحبوبة بألطف الأسماء وأعذبها وأرقها ثم جلس يقبل تلك الورود العطرة .

الفصل السابع عشر

كان روجر جالساً في غرفة بهية مزينة بالأزهار على اختلاف أنواعها وأشكالها تفوح منهـــا الروائح العطرية التي تملأ الفضاء وأمامه زوجته مستندة على مقعد وكان صامتين لا ينطقان بكلمة والنهار قـــد شاخ وشمسه كادت تتوارى عن الأبصار ثم أخذ الفضاء يظلم شيئاً فشيئاً إلى أن أقبل الغسق بخيله ورجله باسطاً أجنحة هدوئه وسكينته على جميع الكائنات التي تحت الشمس.

أمام هذا المنظر الذي تتشنج بـه الأعصاب لا يتمالك القلب الحزين عن سكب العبرات واصعاد الزفرات .

انه إذ كانا يسيران على شاطيء البحر في صباح ذلك اليوم فاتحت مرغريت زوجها بالموضوع الذي أتعب فكرها تلك الليلة وحرمها لذة النوم فطلبت أولا فسخ أكليلها مع ألبير ثانياً أن تكلل على روجر اكليلا كنسياً شرعياً ولم يكن روجر يقاطعها في أثناء حديثها هذا وعندما أتمت قولها هـــذا بدت على وجهه

سمات الرجولية المهيبة وقال لها : لا يا مرغريت فإن هـــذا لا يمكن .

— ولم يا روجر

— هذا أمر مستحيل وأنا أرفض ذلك (قال بحماسة وقوة مقرونتين بدعة تامة ووضع يده على ساعدها مداعباً فتمتمت قائلة لا أفهم) .

— ألا تفهمين اعتقادي بتمام زواجنا وتريدين أن نطلب عتقاً وهمياً ومن يعطي هذا ؟.. لا أسمح لك بالرجوع إلى الماضي وقد قلت هذا مراراً على مسامعك،أن الماضي قد انقضى وقد كان لك تمام الحرية حينما قبلتني زوجاً لك وتلك الحرية محدودة الآن .

— أنا غير آسفة على حريتي يا روجر لكن حباً بكسيم .

فرفع روجر قبعته وأمرّ يده على جبهته يمسح عنها عرقاً كأنه يقطر من أحشائه . فظنت أن رضاه قريب لهذا مالت نحوه قائلة بصوت رخيم :

أريد ذلك من صميم القلب يا روجر .

فحملق في وجهها طويلاً ثم قال بحدة هذا حـــدها : انك توجعيني بهذا القول . نعم لو يوم طلبت أخذ يدك أبيت بداعي أن الشريعة الكنسية تحرّم ذلك لكنت امتثلت لاعتقادك هذا

وعدت صامتاً . بل لم يخطر ببالك وقتئذ هذا الأمر . والآن بعد أن أصبحت زوجتي وأم ولدي أخذت تتشبثين بأمر الكنيسة ؟ لعمري ان في هذا لعجباً عجاباً .. ألا تعلمين انك لي حتى الموت .. الى الابد ؟

– لم أقصد ان اجرحك يا روجر انما اردت ان افهمك هذا الفكر الذي يصعب علي.

– هذا الفكر .. واي فكر ؟

– ان زواجي الاول لا يزال مقيداً في سجل الكنيسة ..

وبعد ان غشت وجهه صفرة أشبه بتلك التي على وجوه الموتى امسك يديها بعنف وقال: دعينا من هذا الموضوع فلنعد الى الفندق او نذهب الى حيث هو مكسيم . ثم سارا صامتين منخفضي الرأس الى ان لحا مكسيم عن بعد مع مرضعه فأسرعا في خطاهما ثم ساروا جميعاً . اما مرغريت فانها استشاطت غيظاً لأنه رفض طلبها مع ان ذلك يعرب عن عاطفة شريفة ونفس عزيزة لا تقدر ان تحتمل سمة العار. وفي كل الايام الماضية كان روجر اطوع لها من بنانها ورهن اشارتها على انها كانت متحققة انه لا يبخل عليها بروحه إذا طلبتها لكنها لم تعلم انه كان حليا مطيعاً في الأشياء الثانوية فقط . مع انه في حقيقة الأمر كان صلب الرأي ثابت الكلمة قاسي الطبع لكنه طيب القلب . وعندما يستدعيه عليل ما لمعالجته كان يبذل الطاقة في

شفائه إذا أطاعه العليل وان لم يعمل بحسب مشوراته بل خالف منها حرفاً واحداً تركه وشأنه ولم يعد اليه وذلك لأنه كان يعتقد ان الدعــوة نتيجة الثقة التامة والثقة تقتضي الطاعة الكاملة . ولما رضيت به مرغريت بعلا لها رأى في هذا الرضى برهاناً كبيراً على تمام ثقتها به وعندما عرف نفسه أهلا لهــذه الثقة قبل بسرور واجبات الزوجية . وفي كل المعاني الثانوية لم تكن ارادته سوى صدى ارادتها لكنه لم يسمح لهـا بارتكاب خطأ فاضح كهذا ، بل كيف يدعها تتصور لحظة واحدة ان اقترانها غير تام . نعم انه جعل حبّه وقفاً لها لكن هذا الحب كان صادرا من آمر واجب الطاعة فلا غرو ان كانت ضعيفة فانه قوي ثابت وإذا وقعت على الحضيض فعليه ان يقيل عثرتها ويحمل قلة صبرها وهــو مكلف ان يحمل قلبه سائر همومها وأحزانها لأنه يحبها ويشفق على ضعفها غير انه لا يريد ان يدعها تشك دقيقة واحدة في صحة اتحادهما .

لم يكن روجر يعتقد شيئاً ممــا يتعلق بالأديان ولذا كانت الكنائس والمعابد وخدمتها وكل ما له علاقة بهذه الامور كلا شيء عنده وهذا كان عيبه الوحيد .

ثم جلس في ذلك المساء وراء مكتبه يقرأ الرسائل الواردة اليه في ذلك اليوم وغرقت مرغريت في بحر هواجس وتخيلات معذبة ولم يكن إلا القليل حتى سمعت في قلبها صوت ألبير ومرّ

بذهنها ان ايفون تناديها فانتفضت للحـال وقالت لروجر :
هـا انذا ذاهبة الى بائع الأزهار وربمـا دخلت الكنيسة بعد ذلك .

– وأنا باق في مكتبي لانشغالي بكتابة جملة تحارير. فهم من لهجتها انها تود الخروج وحدها وبعد ان توارت عنه لأنه كان يراها من نافذة غرفته تنفس الصعداء وأقسم بأنه سيدافع عنها حتى الموت وأما هي فترى قلبها مفعما حباً وغماً معاً – ذهبت تبتاع أزهارا لترسلها الى ابنتها الراقدة في الرمس .



الفصل الثامن عشر

في يوم الأربعاء المعين وصل ألبير قبل سائر المدعوين فقالت مدام فارز وهي تصافح يده . أرى وجهك منيراً في هـذا اليوم فالحمد لله على ذلك .

— نعم انصحتي تحسنت وتريني مديوناً لمعروفك في كل حال فأشكرك ما حييت .

— انك تسرني جداً بكلامك هذا تفضل اجلس وبعد قليل تأتي اودت .

— اني أخاف عليك من هذا الحب الوافر لابنتك .

— ولماذا ؟

— وماذا تفعلين فيما بعد حينما تتزوج .

— أحبها اليوم وغـداً وأعزها في الحالتين وهي الآن صغيرة ولا تتزوج إلا بعد بضع سنين .

– كم سنها

– ١٦ سنة

– وحضرتك كم سنك

– قد بلغت الرابعة والثلاثين .

– ألم تغيّري أفكارك السابقة

– لا بل كل يوم أتمسك بها أكثر .

دخلت إذ ذاك اودت ابنتها ، صحبة جدها دسباس وكانت كأنها تمثال الشبيبة يجللها شعرها .

استقبل دسباس ألبير استقبالاً حسناً للغاية .

وكان دسباس هذا قد فقد امرأته منذ سنين طويلة يقضي أكثر أوقاته في الجولان والتنقل من محل لآخر ، قد رغبت مدام فارز أن يسكن أبوها معها بعد وفاة زوجها لأنها وحيدة ولا سند لها غيره ، غير انه لم يقبل طلبها هذا بل فضل أن يبقى في بيته مطلق الحرية إلى أن يهرمه العمر وتذهب السنون بقواه فعند ذلك يسكن مع ابنته لأنها تعتني اعتناء تاماً بشيخوخته .

وما أتت الساعة السادسة ونصف حتى كمل عدد المدعوين ومن بينهم بلواي أحد الفلاسفة المدرسين في إحدى مدارس فرنسا الشهيرة ومعه قرينته التي تناهز الخمسين . أما صاحبة

المنزل فإنها استقبلت الجميع بكل هشاشة وبشاشة وابنتها تحذو حذوها في الملاطفة والمجاملة وبعد أن عرّفت مدام بلواي بألبير صافحت يده قائلة : اني أحب كل أصدقاء مدام فارز .

وهذا صديق حميم قديم جداً جفانا مـدة خمس سنوات سافر في خلالها إلى مصر . انبيء مدام بلواي أيهـا الصديق بمـا عندك وكان من المدعوين الخواجة لسكال أحـد المصورين المشهورين والدكتور توري طبيب الأسرة الخاص وبعد أن تجاذبوا أطراف الحديث برهـة ذهب الجميع إلى المائدة وجلسوا حولها وأخذت الداعية محلا قرب ألبير لتلاطفه بقـدر امكانها وتنسيه أحزانه أما المائدة فكانت مزينة بكل أنواع الزينة تحدق بهـا الأزهار المختلفة الألوان والأشكال والشموع الملونـة والمنائر الساطعة بالأشعة تخطف الأبصار وفي وسطها تمثـال طفل صغير هو رمز الحب ، وحوله الأدوات الفضية من ملاعق وشوك وسكاكين وغيرها والأنوار تنعكس على الكؤوس فتشع كشموس صغيرة . قال دسباس : أظن ان ألبير لا يحب شرب المـــاء وحضرات الأطباء الذين منهم الدكتور توري يبذلون جهدهم في أن يبرهنوا لنا أن شرب الخمر مضر بلا جدال .

قال ألبير : نعم إذا كان حلواً .

دسباس : آه من الأطباء ومن أفكارهم القبيحة .

توري : انك مبتلى بداء الصرع يا صاح .

دسباس : مبتلي بـه وممتلىء البـدن ثم ماذا ؟ عند موتي لا أتحسر على شيء وقد عشت عيشة راضية هنيئة أكثر منك أنت الرفيق النحيف كملازم في العسكرية ويكاد طولك ينقصف

فنظر ألبير إلى هـذا النحيف الذي يكاد ينقصف فرأى وجهاً بجبهة عالية وتحت شاربيه الأسودين شفتان تدلان على الدهاء وكان يحادث اودت التي كانت رفضت الحساء (الشوربة).

مدام فارز : ان الدكتور يمنعها عن أكل الحساء .

دسباس : ان العالم على وشك الانقضاء إذ أن أوامر حضرات الدكاترة تلاشي لذات الموائد .

مدام بلواي : أما أنا فإني أعتبر أنه يجب علينا أن نقرن كل أعمالنا بشيء من السذاجة .

مدام فارز : هذا هو اعتقادي نفسه .

دسباس : نعم . ويجب أن نتناول الطعام كما لو كنا نبتلع دواء مراً. ألم يحب آباؤنا من قبلنا التوابل وزجاجات الخمر الجيد.

أو لم يكن شأنهم مع كل ذلك عظيما .

مدام بلواي : مما لا جدال فيه ان شأنهم كان عظيما جـداً وعقلهم أوسع من عقلنـا وروحهم أخف وألطف ولم يكونوا يملون من الملاهي والمسرات .

توري : اني اوافقك في هـذا يا سيدتي غاية الموافقة لكني لا أريد أن أشتري لي سوء الهضم مجاناً ان طعام مـــدام فارز اللذيذ إنما جعل لاقلال نظام الجهاز الهضمي بينما كانوا يخوضون في هـــذا الموضوع، اغتنم ألبير الفرصة وكلم مدام فارز بصوت منخفض مادحاً سلامة ذوقها في تنظيم المائدة وتزيينها .

ان هذه الأزهار أُهديت لنا في هذا الصباح وفي أيام الشتاء لا تحلو لي إلا أزهار الجنوب ويخال لي أن وردة كهذه – أخذت وردة وجعلت تقلبها بين أصابعها – تتدفق منهـا معـان غزلية وتخيلات شعرية تبهج الناظر وتقر الخاطر حينئذ فكر ألبير في الوردة البيضاء التي في جيبه وكان أتى بهـــا عن قـبر ايڤون ثم وجهت كلامها للفيلسوف قائلة : أسمعنا صوتك أيها الفيلسوف الفاضل لم لا تتكلم ؟ أبدِ لنا رأيك فيما يختص بطيبات المائدة .

بلواي – ان للمائدة شأناً كبيراً في الهيئة الاجتماعية كيف لا ، وهي مجلبة للألفة بين الناس .

توري – أمتأكد أنت انهـــا مجلبة للألفة بين الناس . أنا أعرف سيدة شريفة تكاد تكون حياتهـا نعيما لو لم يفرض عليها مجالسة زوجها على المـــائدة وذلك لأنــه يمسك الشوكة بنوع مضحك يثير غضبها .

دسباس – وحتى الآن لم تطلب الطلاق

توري ـــ انها تفكر في طلبه .

مدام بلواي ـــ ما أكثر الطلاق في أيامنا هـذه وبالحقيقة إنه فرج للزوجين التعيسين .

توري ـــ إن كلامك لفي غاية الصواب .

ـــ ان مدام فارز شعرت بانقباض في أثناء هـــذا الحديث وودت الانتقال إلى موضوع آخر خوفاً من ظن ألبير بأن محور الحديث يدور عليه .

مدام بلواي ـــ ان شرائع الزواج كانت ولا تزال ممقوتـة مكروهة .

دساس ـــ هذا صحيح

مدام بلواي ـــ إن الشرائع لم تسن لمن كان مثلك أو مثـل زوجي لكن للاشرار الذين يكونون على شاكلتهم وفي حياتي قد رأيت فواحش وأهوالاً كثيرة .

توري ـــ اني أكرر ما قلته لمدام فارز وهو ان هذا البيت هو مسكن الأوهام .

مدام فارز ـــ لا بأس من هـذا الوصف فإني أقبله بسرور وسأحافظ على أوهامي دائماً لأني أعبدها .

توري – مـــدام فارز تثبت أن عموم السيدات يحببن أولادهن وانهن أمهات لا عيب فيهن ولا .. ولا .. ولا محـل للانتقاد عليهن .

مدام فارز – ويحك ماذا تقول ؟

مدام بلواي – ان الوالدات الفاضلات اللواتي لا يشينهن عيب قليلات جداً واننا نرى الأولاد نظراً لجهـل والديهم وقلة اكترائهم بهم أصبحوا ضحية الزمان أو ألعوبة بين أيدي الهموم والأحزان .

مدام فارز – ماذا تقولين لا أريد أن أسمع هذا الكلام

أودت – لكن هذا هو عين الحقيقة يا والدتي

دسباس – أخفتني يا اودت

اودت – ان الحقيقة تخيف أحد .

مادام فارز – وأنت أيضاً ماذا تقولين . ان الحياة لا تحتمل بدون الكذب والتخيلات والتصورات .

ألبير – ان التخيلات القديمة قد استولت على قلوب سلفائنا وهزت آمال سائر الشعوب .

فنظر حينئذ الدكتور توري إلى ألبير ولم يجبه بشيء بل قال لأودت :

نحن إذاً ندافع عن الحقيقة أيتها الآنسة اودت بدون شك .

وكانت مـدام فارز تلاطف الجميع أجمل ملاطفة ثم قالت لابنها : وماذا تتكلم مع مدام بلواي يا أبي .

دسباس — ان حضرة مدام بلواي تعرف بأني أعبدها ليس اليوم فقط بل منذ أيام طويلة أليس كذلك .

مدام بلواي — نعم

دسباس — وتريدين حبي

— نعم

— وتسرين به

— نعم

— وأنا أحبك إذاً على رغم الدكتور توري النحيف الجسم . واني أسر جداً عندما آكل بالقرب منه لأني أعلم حق العلم أن قابليتي الجيدة تجعله يقاسي عـذاباً أليماً . ألا تقر يا حضرة الدكتور بأنك تحسدني على قابليتي ؟

توري — لا أحسدك عليها لأني عاقل

دسباس — وماذا تعني بكلمة عاقل ؟ .

توري — هل تظن أن لي صبراً على شرح أمثولة مختصة بعلم النفس في هذه الساعة .

ـ انا لا أكلمك في دروس علم النفس بل كل ما أطلبه منك هو أن تعطيني برهاناً قاطعاً وحجة دامغة على انك عاقل كما تقول.

توري : خفف كمية طعامك تصر عاقلا من هذا القبيل . ان العقل يبين لي ان شرب المسكرات يحط من قدر الانسان فأتجنبها ولا أكثر من شربها .

بعد ذلك دار الحديث على فنّي الموسيقى والتصوير فارتاحت الى سماع هذا الموضوع مدام فارز ، وسألت ألبير هل ازعجه هذا الحديث فأجاب : لم يزعجني قط كوني مطمئنة من هذا القبيل لله ما أطيب قلبك ايتها الصديقة . ثم تبادلا نظرة وابتسامة لحظها الدكتور توري الذي بعد برهة قرب من مدام فارز قائلا : ما اخفك يا مدام !

ـ ولماذا ؟

ـ لأنك لا تعتنين إلا بالآتي الجديد .

ـ وهل ألبير جديد ؟ انك تعنيه دون شك . اني أعرفه منذ ١٥ سنة وكانت زوجته صديقة حميمة لي .

ـ وهل ماتت زوجته ؟

ـ كلا بل مطلقة .

ـ أكانت تخدعه .

ـ بل كانت تعبده .

ـ إذا هو الخائن .

— نعم .

— ان ذلك باد في محياه .. واين زوجته الآن ألا ترينها .

— اقترنت برجل آخر وهو الدكتور روجر .

— هذا كان تلميذا لي وهل هو زوجها الآن .

— لا تلفظ هذا بصوت عال لئلا يسمعك .

— يظهر ان هذا المسيو يعجبك كثيرا .

— ايهـــا الدكتور الفاضل اني أحب اصحابي وأرغب في تسليتهم بأيام حزنهم .

وكانت أودت واقفة عند مائدة صغيرة تخـــاطب لـقال المصور وتريه بعض الرسوم التي صورتها في خلال ذلك الاسبوع وهو ينتقد بعضها مبيناً لها مواضع الاصلاح وألبير يسمع وينظر متأملا جمال هذه الابنة الفتان ثم اقترب منها طالباً أن تريه التصاوير فقدمتها له الواحدة بعد الأخرى والابتسام ملء شفتيها فقال المصور : أرى عند الآنسة أودت استعدادا عظيما وميـلا شائقاً الى العمل فاذا داومت على هـذا فانها لا شك تبرع في فن التصوير الجميل .

فأبرق محياها سرورا ثم أتت أمهـا وقالت لألبير : ألا ترى ان عندها استعدادا كبيرا .

— نعم أرى ذلك وأهنئك .

دسباس : لا أنكر استعدادها ولكن لا لزوم لمثل هـــذه الأهلية عند النساء .

امها : والدي يدعي ان سعادة المرأة تتعلق بالرجل ولكني أرى ان المرأة تحتاج أيضاً الى الاستقلال نظير الرجل .

– ولماذا ؟

– كي تحيا حياتها هي أيضاً وذلك ان الانسان لا يحيا الحياة الأدبية إلا متى تم له استقلاله وحريته .

– يا لهـــا من غباوة ! وبعد أن تناول كأساً من الكونياك ذهب الى مـائدة اللعب داعياً بلواي الى لعب الشطرنج . وكان ألبير جالسا بالقرب من مدام بلواي والدكتور توري بجـانب اودت التي أخـذت تعزف على البيانو عزفـاً يأخذ بالألباب كل مأخذ، انما توري لم يكن مصغياً إلا للحديث الدائر بين مدام فارز ومـدام بلواي وألبير ، وأما المصور فشرع يرسم شخص اودت بكل اتقان واحكام وهي تعزف على البيانو .

منذ أربع سنوات مرضت أودت فدعي الدكتور توري هذا لمعالجتها ومن ذلك الحـــين اضحى الصديق الصدوق والمسامر والأليف والجليس على مائدة طعام هذه الاسرة وكانت صاحبة المنزل تصغي الى كلامه وتعمل بحسب مشوراته لأنها متأكدة انه يحب اودت حباً أبوياً ويهتم بصالحها كاهتمامه بصالح ولده وكذا

اودت فكانت تحذو حذو والدتها وهما تنظران اليه كفرد من أهل البيت وترتاحان الى عشرته ومجالسته وتستدعيانه لمرافقتهما الى الملاهي والمشاهد التي في باريس لتسلية الخواطر وتسريح النواظر. وكان توري يلبي الدعوة برضا وارتياح ويظن ان معاملة مدام فارز هذه لم تكن ناجمة إلا عن حب انطوى عليه فؤادها ولهذا أخذ يفتكر في الأشهر الأخيرة بأن يتخذها زوجة وتراءى له ان حياته تكون سعيدة معها وهي تساعده في نجاحه الاجتماعي نظراً لما هي منطوية عليه من حسن الذوق ولطف المعشر وحلاوة اللسان الخ .

وهذه الأفكار لم تكن خافية عن والدها دسباس الذي رأى ان اقتران توري هذا بابنته هو في غاية الموافقة والصواب ولذا كان عندما يلمح له الطبيب توري بشيء من هذا يجيبه بعبارات تشف عن تمام الرضا والقبول .

ولذا امتعض توري من زيارة ألبير هذا البيت وحسب حساباً من مزاحمته في مستقبل الأيام لأن ألبير كان من اولئك الذين لم يخلقوا إلا لمطارحة الهوى ومغازلة النساء لأنه كان ذا سطوة ونفوذ في قلوبهن وأعظم شاهد على هذا هو ان مدام فارز لم تكن تعامل أحداً قط بتلك الملاطفة التي عاملت بها ألبير في ذلك اليوم فان الابتسام كان يبرق بين شفتيها كيفما نظرت وحيثما التفتت وتنبعث من كلماتها حلاوة شديدة العذوبة والرقة

بنوع لم يكن مألوفاً منها بالزمن السابق . لله ما أعظم الهشاشة والبشاشة اللتين كانت تظهرهما له .

وعندما انتهت اودت من عزف الموسيقى نهض توري وقبل يد مدام فارز معتذرا راغباً في الذهاب الى ملهى التمثيل فلم تلح عليه بالبقاء عندها ، لأنها فكرت في نفسها بأنها تتكلم بحرية اكثر مع مدام بلواي وألبير .

قد طال الحديث واتسع نطاق الكلام في ذلك المساء ولم ينفرط عقد اجتماعهم إلا عند منتصف الليل وهم يدعون لمدام فارز بالعمر المديد والعيش الرغيد .

الفصل التاسع عشر

نعم ان مرغريت تألمت جداً من رفض روجر طلبها وعدم تتميمه مشتهاها وغاية متمناها وقد طالما اجتهدت في ان تنسى بلانش تلك المرأة التي صبت سماً زعافاً في كأس حياتها الصافي وتنزع من مخيلتها صورة ذينك الازدراء والتعجرف الذين هما من اقل صفات بلانش وقد صممت النية وعزمت العزم الثابت على ان تجعل نصب عينيها وموضوع افكارها اناء الليل واطراف النهار ، ولدها مكسيم وزوجها روجر الحنون الذي كل كلمة منه بل وكل نظرة بل وغضبه ذاته كل ذلك كان شاهداً بيناً وبرهانا قاطعاً وحجة دامغة على شديد حبه لها وولوعه بها .

وكان يثلج صدرها ويخفف تأثرها من قلق افكارها عندما تتذكر انه على جانب عظيم من معرفة هواجسها وما يدور في خلدها لكن لدى ذكر ألبير الحلو وتمثل صورته في فضاء ذهنها كانت تشعر بألم سري يخرق احشاءها ويمتد الى سائر أعضاء جسدها ممتزجا بدمها .. إذ تتمثل صورته تشاهد عينيه حيث يجول ماء الحنان الدائم وفي محياه علامات الألم الذي لا يشفى

وتنظر شفتيه الباسمتين وقامته الممتازة وتسمع نغمة صوته الحزين فيذوب إذ ذاك قلبها حناناً وتسيل مهجتها شوقاً وهياماً.. وتحاول ان تقصي هذا المشهد من أمام عينيها فيذهب اجتهادها عبثاً ..

تاقت نفس مرغريت الى العودة لبيتها وهي تظن متيقنة ان قلقها سيذهب أدراج الرياح إذ ليس لديها بعد الرجوع أوقات طويلة فـــارغة لتتمثل المخيلة بعض الصور والتذكرات المهيجة وهذا مـا كان يحلم به روجر أيضاً حيث كان له تمام الثقة بهـا متأكداً أنها لا تأتي أبداً بما يؤلمه ويجرح احساساته وكان قد شرح لها كل عواطفه بأرق عبارات ، نقلها عن صفحات قلبه ورددها على مسامعها مراراً وراجعها بأوقات متباينة تكراراً في انه لا يبتغي سوى سعادتها ! أو ليس هو القائل لها: أريد ان تكوني سعيدة فلا أحلم إلا بهذا ولا طمع لي بسواه فان لم تكوني كذلك فانني أحسب ذاتي أتعس الناس .

– اني سعيدة يا روجر .

– هكذا أتأمل بـل أوصيك ألا تسمحي لبعض الصور أن تجول بأفكارك لأنها تضع سماً ناقعاً في كأس سعادتك والسموم أجناس وقطرة واحدة من بعضها كاف لإماتة شاربها . قاومي قلبك وتصورات مخيلتك وضعي في عقلك ان لا عضد لك غيري اقصديني دائماً في ابان همومك وأحزانك فان حبي لن يتخلى عنك ابدا .

لدى سماع هذه الكلمات من فيه انطرحت بين يدي هذا

الرجل الرحب الصدر الكريم الاخلاق الشريف العواطف فانهضها قائلا : ها أنذا لك ما حييت . .

ان مدام موستل والدة مرغريت سرت سروراً لا مزيد عليه عندما رأت ابنتها في صحة تامة فضلا عن اعتنائها واهتمامها بشؤون البيت حينئذ حمدت الله وشكرته شكراً جزيلا أما مرغريت فانها كانت تتجنب الذهاب الى البستان المعلوم حيث الملتقى بألبير كما أنها أوصت المرضع بأن لا تذهب اليه البتة . وفي ذات يوم شرعت تقص على والدتها ما جرى لهما في أثناء السفر وما شاهداه من المناظر الجميلة والوجوه الغريبة وكيف ذهبا الى مونتي كارلو ذلك المكان المشهور بالمقامرة – دون ان تذكر بلانش – وما شاكل ذلك قالت لها : نعم لقد تنزهت يا ابنتي وسرحت ناظريك في مناظر لم ترها عيناك قبلا وهذا لعمري ما يتطلبه سنك بل ان الانسان لايستطيع في كل طور من أطوار العمر أن يألف الوحدة والانفراد وقد سمي انساناً لأنه يتطلب ويستدعي من طبعه المؤآنسة وألفة بني جنسه فهو يعيش بينهم ويتعاطى معهم أشغاله وأعماله ويشاركهم في أفكاره فتكون نتيجة هذا الاختلاط التفكه والتسلي فضلا عن الافادة والاستفادة ، أما أنا فإني ألوم روجر كل اللوم لأنه يبتعد عن معاشرة الناس كما اني ألومك ولا أعذرك لأنك لا تحرضينه على ذلك وها أن زوجك أحسن الرجال لكن فيه هذه الشائبة فقط فسبحان من تنزه عن النقصان . نعم ان روجر هو مخطيء بهذا المعنى فقط . ولم لا تزورون بعض الاصحاب والمعارف ثم

تستقبلونهم نظير سائر الناس ؟ ترى ألا يوجد غـــير سلفتك وزوجها وأولادها على وجه البسيطة ؟ فحبذا الزواج وآله انما التفنن في المعيشة أمر جوهري ولاغنى لأحد عنه مطلقاً وخصوصاً لمن كان مثلك .

بعد أن فاهت بهذه الكلمات رأت ابنتها ان كل مـا قالته صوابي وواقع في محله وقـــد تصورت ان كل ضجرها ناتج عن الانفراد والوحدة ثم قالت بلطف : لقد صدقتِ بما نطقت يا أماه بل هذا هو عين الحقيقة لكن ... في حالتي الحاضرة قـد يعسر الخروج بتواتر !

— وماذا تقولين يا مرغريت ان كل أحوالك لا لوم بها ولقد طويت أطوار حياتك حتى الآن بنوع لا يقبـــل الانتقاد وأما زوجك فإنه رجل تفرد بالصدق والأمانة والاستقامة كما لا يخفى على كل من عرفه أو سمع به .

— نعم لكني .. مُطـلّـقة .. وعلاوة على ذلك ان اتحادي بروجر ليس كنسياً ..

— ابعدي عنك هذا الفكر المبين يا ولدي .. اتحادك بروجر ليس كنسياً ! هذا حديث خرافة . تعلمين اني لست بكافرة بل أحب الله وشريعته من كل قلبي . ليس اتحادك كنسياً ومع ذلك أراك أحسن بكثير من اللواتي تزوجن في الكنيسة وأهـلاً لأن تحسدك النساء اللائي ليس لهن زوج كزوجك صاحب الأخلاق

الكريمة والأدب الرائع. فشكراً لذوي الذوق السليم الذين سنوا شريعة الطلاق إذ بهـا تتخلص المرأة الأمينة من رجلها الخائن . الحمد لله تعـالى على انفصالك من ذلك الذي لا يليق بك . أما زوجك الحالي فهو والحق يقال كنز ثمـين تحسدك عليه بنات جنسك .

فتنهـدت مرغريت وقالت : وبعض الأمور لا يكون إلا تعاسة .

– إنني أوافقك في هذا فقد تعذبت كثيراً في ماضي حياتك فعليك إذاً أن تستأصلي ذكر هاتيك العذابات من فكرك .

غيّري أسلوب معيشتك هذا ، اذهبي مثلاً لزيارة مدام فارز صديقتك القديمة . وقـد سألتني عنك عندما التقيت بها في إبان غيابك عند بائع القبعات ، وهي تستقبل يومي الأربعاء والسبت ولا يخفى عليك انه يزورها كثيرون من ذوي الأفكار السامية والآداب الفائقة والذكاء الرائع، زوريها من وقت لآخر وانظري ما ألطف ابنتها اودت التي اشترت لها أمها قبعة من أجمل القبعات هنـــاك ، تتعرفين ببعض السيدات النبيلات حيث تتوفر لديك أسباب اللهو والتسلي ولذة الاجتماعات العالمية التي تنبه الفكر من غفلته وتوسع دائرة العقل وتنعش القلب . هذا وقـد ألحت عليّ تلك السيدة النبيلة بأن أبلغك وافر أشواقها وتحياتها بعد أن سألتني عنك باهتمام كثير .

ـ لله درها ما ألطفها ، نعم ، كنت أحبها كثيراً في الماضي وسأفتكر في هذا الأمر وأطلب فيه رأي روجر .

ـ حسناً تفعلين . وإذا وجـد مانع من جهة مكسيم فإنني لا أُفارقه ولا دقيقة واحدة فيغيابك وأبقى بقربه حتى رجوعك من زيارتك .

ـ أشكرك يا والدتي غاية الشكر

ـ انك بكيت كثيراً بالماضي يا ابنتي وقـد نظرت دموعك الجـارية واطلعت على جميع أحزانك فدعيني أن أراك ضاحكة مسرورة القلب قريرة العين قبل أن أموت .

ان كلمات مدام موستل هـذه وقعت موقعاً حسناً في قلب ابنتها بل كانت كقطرات ندى على قلب يتلهب ظماء وبعد بضعة أيام عزمت مرغريت على أن تزور مدام فارز من غـير أن تخبر روجر بذلك .

الفصل العشرون

لم ينفك ألبير عن التردد إلى بيت مـدام فارز حيث كانت مرغريت موضع أحاديثه الطويلة ومدام فارز تسمع كلامه شاعرة بأن ناراً محرقة تلتهب في أحشائها فتصعد إلى ناظريها ووجنتيها وهي تعجب كثيراً من حنين ألبير إلى زوجته لأنها كانت تعتقد ان وداد الرجال لا يكون إلا كسحابة صيف ثم تنقشع . ومتى توارى عنهم من هو موضع حبهم أو التزموا أن يبتعدوا عنـه لسبب من الأسباب أو غـير ذلك خمدت تلك النار المحرقة وأصبحت آثار ذلك الحب هباء منثورا .

وإذا كانت تسمع حـديث ألبير المملوء من آيات الحنو والعواطف الغزلية الشريفة جعلت تلوم نفسها على اعتقادها ذلك في كل الرجال دون أن تفرق بينهم أو أن تعرف البعض منهم معرفة خاصة وكانت تأسف على ماضيها لأنها لم تحب فيه إذ كانت ترغب في الحب الحقيقي المخلص الدائم .

وكان ألبير لا يمل عن تعداد مزايا مرغريت وسجاياها ويثني

على سلامة قلبها وأمانتها ويسأل مدام فارز متعجباً من انها كيف أمكنها أن تبتعد عنه وترضى بالاقتران مرة ثانية . فتجيبه بأن غدر الرجل يفوق صبر المرأة واحتمالها ويصعب على الانسان أن يثق بثبات حب شخص يخونه وعندما سمع هذا منها في إحدى المرات هتف قائلاً : هذا فكر نسائي بل جنون محض .

— هل تقـدر أن تحب امرأة خدعتك وهـــل تعتقد صحة حبها لك ؟.

— يوجد فرق بين هذا وما نحن بصدده .

— فيما يتعلق بالاحساسات لا فرق بين هذه الحالة وتلك وعليه فإنني أعذر مرغريت التي لم تكن تبتغي إلا أن تدوم على عهـد الأمانة .. لكن دعك الآن من هذه الأفكار التي تحزنك وتقلق راحتك . أما اودت فكانت تسر كثيراً في عشرة ألبير وتباحثه مراراً في شؤون هذه الحياة ومشاكلها الصعبة وهو يكلمها عن الحب مبرهناً لها انه موضع الحياة الدنيا ولولا الحب لمـــا وجد الشعراء والمصورون والموسيقيون وغيرهم من ذوي الفنون وأصحاب الشهرة ، وكانت اودت تسمع هذا الكلام بغاية الانتباه والاصغاء وتمعن التأمل فيه من غير أن تجيب بشيء أما مـدام فارز فكانت تسخر بهما قائلة لألبير انـه غير خالٍ من الجنون ولو قليلاً ، وأن كيفية الحياة على غير ما يعهد ، نعم انه يتألم لأنه لا يعرف كيف يحيـا . وفي ذات يوم كانت تتحدث مع ابنتها

اودت في شأن ألبير هذا فقالت اودت : يجب أن يتزوج هـذا الرجل يا أمي فإنه شاب .

– هو كهل فإنه يناهز الأربعين ، أمَا هذا تقدم في السن ؟

– لا . أنا لا أبالي قطعياً بتقدم الرجل في العمر إذا كانت صفاته تعجب وترضي فلو خيرت بين ليوناردي فانشي البالغ عمره ٨٠ سنة وبين أجمل شاب من شبان عصرنا هـذا لاخترت الأول بدون تردد . حينئذ ضمت ابنتها إلى صدرها وقبلتها .

أما البير فكان يغذي صبره بالآمال وينتظر انتظار هلال العيد انبثاق فجر الغد علّه يرى ذلك الشخص الذي أحرمه لذة النوم في لياليه الطويلة ويعتاض برخيم ذلك الصوت عن كل مـا يراه ويسمعه . نعم كان يقول مراراً : ستعود مرغريت وتدري بكل ما قاسيت واحتملت من جراء بعـادها وإذ ذاك تشفق عليّ وتعود إليّ كالأول فحبذا تلك الأيام !

الفصل الحادي والعشرون

في ذات يوم من أيام شهر مارس البهيجة والساعة الرابعة بعد الظهر كانت مـدام فارز تجامل زائريها وبينهم شقيقتان آنستان تسمى الكبيرة منهما ماسكا والصغيرة فدورا ولم تكونا جميلتي المنظر بل قبيحتي الشكل تجلل ملابسها «التخاريم» والشرائط الكثيرة ولا تحلمان إلا بالزواج إذ كل واحدة منهما تتجاوز الثلاثين سناً . ومـدام فارز تدعوهما غالباً لزيارتها وتستقبلهما بلطفها المعتاد وخصوصاً بما أن ماسكا كانت ذات صوت رخيم يخلب الألباب ويأخذ بها كل مأخذ واودت كانت تقول لها كل مرة : لو كان صوتي نظير صوتك لكنت الأولى بين الممثلات في الاوبرا .

وبينما كان موضوع الحديث الأصوات الجميلة أخذت مـدام فارز تطنب في مدح صوت الآنسة ماسكا وحذا حذوها مصدقاً هذا كاميل بليه فأبرقت اسرّة وجه ماسكا الذابل وعرضت

على الحاضرين أن تغني على مسامعهم بعض الألحـــان فأجابوها بالقبول بكل مسرة وارتياح وحينئذ جلست اودت حـــذاء البيانو ، وعزفت أولاً بقوة شديدة حتى دوت القاعـة ثم خففت العزف شيئاً فشيئاً إلى أن ظهر صوت ماسكا الفتان المطرب وهكذا فإنه لم يزل يرتفع ويحوم ويدور في فضاء تلك القاعة حتى سكر السامعون من سماعه ومالت أعناقهم . على أن الذي كان يزيده بهاء هو انها كانت تلفظ بتأن الكلمات الغرامية والعبارات التي تـدل على الحزن في ذلك اللحن الذي بدأت بـه . وكل ذلك كان يجري في قلوب السامعين كقوة مغنطيسية أو سوائل كهربائية فتشنجها . .

فأسند كاميل رأسه على يـده وتراءى له كأنه غاب عن عالم الوجود وانتهى إلى جنة النعيم حيث يسمع أصوات الملائكة التي بلا شك تشبه هذا الصوت الرائع . أما مدام فارز فإنها أدارت رأسها إلى الوراء وأخذت تسيل دموعها بكثرة وكاد قلبها يتفتت لعظم وقع هذا الصوت وتأثير تلك المعاني فيه .

وبينا هم كذلك إذ قرع جرس الدخول فنظرت ماسكا إلى الباب وهي وجلة فلم تر أحـداً وما انتهت من ترنيم ذلك اللحن الساحر إلا احتضنتها مدام فارز وأشارت إلى اودت بأن تحضر وشاحاً صغيراً من الصوف الناعم لتلف بـه عنقها فامتثلت لأمر والدتها وما كادت تصل إلى جهـة الباب حتى رجعت القهقرى

وهي تقول : يوجد زائر بقرب الباب فنظرت مـدام فارز إلى ناحية المدخـــل وإذا بالسيدة مرغريت مدام روجر فنهضت وأسرعت إليها ضامة يديها بين كفيها وهي تقول : أهلاً وسهلاً ومرحباً بك أيتها الصديقة العزيزة .

ــ اعذريني يا لويزة لأني كنت قرعت الجرس ولم أدخل لئلا أقطع هذا الصوت الجميل ثم جلست بالقرب من مدام فارز بعـد أن سلمت عليهـــا اودت ثم قالت صاحبة المنزل : بالحقيقة يا مرغريت ان زيارتك هذه لقد سرتني جداً !

ــ لله ما أطيب قلبك يا مـــدام فارز حقاً اني لا أستحق صداقتك هذه بعد أن جافيتك كل هـذه المدة . وقد أخبرتني والدتي انك التقيت بهـا بأثناء غيابي فسألتها عني وكل امارات المودة على محياك وها أنذا أتيت أشكرك « وبغضون ذلك كان قلب مدام فارز ينبض بسرعة لأنها كانت تخشى دخول البير في تلك الساعة » .

ــ نعم أرى من الواجب عليّ أن اسأل عنك يا عزيزتي مرغريت ! وكيف حالك الآن ؟

ــ الحمد لله صحتي عادت إلى ما كانت عليه قبلاً وسفرنا كان جيداً للغاية .

ــ وكيف مكسيم نجلك المحبوب

— هو في صحة تامة الحمد لله اني مسرورة جداً برؤيا ابنتك اودت وأراها تغيرت جداً عن السنة الماضية . ألا تزالون ترغبون في الموسيقى كالأول ؟

— أنا أعبد الموسيقى التي برعت فيها اودت براعة تامة فهي تعزف باتقان لا مزيد عليه . لكنها لا ترتل لسوء الحظ .

— ومن هي ذات الصوت الجميل التي كانت ترتل عند دخولي؟

— هي آنسة روسية وأما التي ترى جالسة بقربها هي اختها. فهل تريدين أن اعرفها بك ؟

— لا بأس من ذلك بل أقبل هذا بغاية المسرة . وبعد التعارف شرعت مرغريت تقص عليهم ما شاهدت في سفرها وفي أثنـاء ذلك دخل الدكتور توري وحيًّا مدام فارز فسلمت عليه وعرفته بمرغريت وعرفتها به .

فابتسم توري وانحنى احتراماً لها وجلس يحادثها بينا نهضت مدام فارز لوداع تينك الآنستين وطال كلام الوداع عند الباب — كما هي عادة النساء في كل اين وآن . ثم قال توري بحلاوة هـذا مقدارها كان بينه وبين مرغريت معرفة قـديمة : اني أعرف زوجك حق المعرفة أيتها السيدة الفاضلة واني أعتبره اعتباراً عظيماً .

ـ اني أسر بكلامك غاية المسرة يا حضرة الدكتور .

ـ ان مهنتنا صعبة وتتطلب وقتاً طويلاً وأنا أشفق على كل طبيب عنده امرأة جميلة ولذا تريني أعزب . بعد هذا شرع يقص عليها بعض حكايات لها علاقة بحداثة روجر زوجها عندما كان تلميذه ويمدح ذكاءه وأمانته ويطنب في وصف أخلاقه حتى أن مرغريت سرت سروراً لا مزيد عليه وشعرت من جديد بميل إلى روجر ولم يكن يخطر على بالها من قبل أن تفتخر بزوجها .

وقالت في نفسها . ان منزلته كبرى بين قومه ومعارفه والجميع يحبونه ويحترمونه فلماذا لا أحبه ؟

ثم في لمحة بصر خال لها أن البير ذكر فيا بين الواقفين بقرب الباب واعتقدت بأنهم يذكرون ماضيها فاصفر وجهها وامتقع لونها وقد لحظ الدكتور توري هذا التأثير . ثم عادت مدام فارز وبرفقتها سيدتان اخريان فاستغنمت مرغريت هذه الفرصة ونهضت مستأذنة بالذهاب فحاولت مدام فارز ان تجلسها فادعت أن والدتها تنتظرها لتذهبا إلى مكان آخر .

ـ كدرتني يا مرغريت عديني بأن زيارتك تكون أطول بالمرة الآتية .

ـ نعم أعدك وأنتظرك مع اودت .

ـ لا شك بهذا نوبي عني بتقبيل خدّيْ مكسيم مراراً .

وعندما مدت مرغريت يدها لتوري ضغط عليها قائلا : أرجوك أن تبلغي حضرة الدكتور بأن معلمه لا ينساه واني أهنئه بزوجته الجميلة واعتبر ذاتي سعيداً أيتهـــا السيدة لتشرفي بمعرفة حضرتك .

خرجت من البيت وهي تفتكر في البير رغماً عنهـا وكادت تندم على هذه الزيارة .



الفصل الثاني والعشرون

قالت اودت لأمها لما خلا بهما المكان : كيف تصنعين بعد الآن باستقبال مدام روجر ؟

ــ الخواجا البير لا يزورنا في الأيام الرسمية ومرغريت كانت صديقتي الحميمة فليس بوسعي إلا أن أستقبلها نظير الماضي .

ــ نعم لكن يستحيل علينا استقبال الطرفين وهذا غير ممكن !

ــ لا أظن أن مرغريت تتكدر إذا علمت بأنني أستقبل زوجها الأول لأنها كانت تحبه كثيراً .

ــ كانت تحبه أولاً في الماضي وهي الآن زوجة رجل آخر .

ــ لا أعلم كيف العمل ولكن على أي الأحوال انها لا تعود إلى هنا قبل أن نزورها وستفتكر في هذا الأمر إنما الخواجا دسباس والد مدام فارز استصوب رأي اودت مشيراً إلى ابنته

بأن تخــبر الطرفين بالواقع فانتفضت اودت قائلة : ليس من الإنسانية واللياقة أن تخبر البير إذ لا صديق له سوانا ولا تعزية له إلا بزيارتنا مع أن مدام روجر هي في غنى عنــا والشاهد على هذا انها لا تزورنا إلا في النادر . فقال دسباس : ان الحق معك يا اودت وهذا عين الصواب .

– أمي ليس عندها جراءة .

– نعم ولكن لا أقدر أن أمس احساسات أحــد ويخال لي أن مرغريت ليست راضية عن حالتها .

– كيفما كانت حالتها ان الذنب لا يقع إلا عليها ومن جهــة الزيارة ليس لها إلا أن تلوم نفسها لأنها هي البادئة بها .

كان دسباس يستقبل زائريه في منزله يوم الأحــد فحينئذ تذهب ابنته واودت لتناول الطعام معه ثم تهتمان بمجاملة ضيوفه واكرامه . وفي الأحــد التابع لزيارة مدام روجر كان دسباس يلعب مع اودت بالشطرنج ، وفي الساعة الرابعة بعــد الظهر دخل الدكتور توري فهتف دسباس أهلاً وسهلاً بطبيبنا النطاسي العظيم !

فأجابه مازحاً : اجلس من غير قيام فإني لست غريباً هنا .

– دعنا نلعب وحدنا ونتحدث مع مدام فارز

فقالت له هيا بنا إلى الصالون الصغير لأننا لا نقدر أن نتكلم هنــا إلا بصوت منخفض ثم ذهبا إليه وجعلت تنظر إلى الصور المعلقة علىالحائط وقالت : هل رأيت الصور الجديدة التي اشتراها أبي يا حضرة الدكتور ؟.

– لم أرها بعد

– ها هي تعــال وانظرها . فجعل ينظر الواحدة بعـــد الأخرى إلى أن قالت تعجبني هــذه البنية الصغيرة وأما رؤية تلك فتحزنني .

– ولماذا تحزنك يا سيدة ؟

– يظهر أنها تندب حبيبها فأنا أتأثر من النظر إلى هـــذه الابنة المسكينة على رغم استخفافي بدموع المحبين .

– نعم واعتقادك بسنة الود غريب حسبما يبدو لي دعيني أولاً أن اهنئك بصداقتك لرجـل وامرأة مطلقين وهل يعرف البير أنك تستقبلين زوجته .

– لا توجد أسرار بهـــذه الزيارة وما من سبب يدعوني لإخفاء ذلك .

– رأيك في محله .

ان توري كان يشتم من رائحة كلامــه علامات الغيرة ظاناً

بأنها تسر بذلك إذ تتخذه شاهد حب وميل إليها ولم يعلم أن مداخلته في ما لا يعنيه جعلته ثقيلاً غير محتمل ، بما أن صداقة مدام فارز له كانت ساذجة مجردة عن كل غاية وعندما سمعت كلامه هذا غشى الاصفرار وجهها واستشاطت غيظاً وكدراً وقالت له : أرجو منك أن لا تتداخل في أموري لأنها لا تعنيك .

— حسناً تقولين يا سيدتي . انما تعنين ان صداقتي تثقل عليك .

— لا أريد ان يتعرض أحد لأمر سيرتي وسلوكي فإنني مطلقة الحرية في سائر شؤوني . نعم اني أزور وأستقبل وأود من أشاء . قالت هذا ودخلت غرفة اللاعبين دون أن تعبأ به وجلست ازاء والدها وابنتها وبعد برهة وجيزة نهضت اودت مسرورة وهي تقول : غلبت جدي فأنا غالبة وهو مغلوب . قال انها ابنة تخيف ثم سأل أمها عن توري . فأجابت في القاعة ينظر إلى الصور . فتبعه إلى حيث هو ثم اقتربت اودت من والدتها ولثمتها فشعرت بارتعاش يديها .

— ماذا جرى يا والدتي أرى يدك كقطعة ثلج !

— لم يحدث شيء . هل تحبينني يا اودت ؟

— وأعبدك عبادة أخبريني ماذا جرى ؟. ثم دخـل دسباس وقال : ماذا حدث ، وأين ذهب توري يظهر لي انه قـد انسل (على الموضة الانـكليزية) ولم يزد على هذا شيئاً ، إذ لحظ اضطراب ابنته ففهم انه جرى لها ما يكدرها من جهة توري .



الفصل الثالث والعشرون

ان الدكتور توري ثاني يوم اجتماعه بمدام روجر ذهب إلى ابنتها وسلم الخادم بطاقة لها فاستغنمت والدتها هذه الفرصة لإعداد مأدبة بليلة سرور وحظ في بيت ابنتها وأفهمتها أن تحث زوجها لأن يكون توري من المدعوين فراق هذا الفكر في عيني روجر مريداً أن يشكره على مدحه إياه أمام زوجته لكنه لم يفطن بمن يدعوهم معه ، فقالت مدام موستل يمكنك أن تدعو اليس وزوجها وصديقنا القديم — لبران هاليه — الذي صادفته بطريقي في الأسبوع الماضي وقد سألني عنكما باهتمام والدكتور توري ويمكنك أن تجد مدعواً آخر من أعز أصحابك ونحن ثلاثة ولا ينقص سوى تعيين اليوم ومرغريت تكتب بطاقة تدعو بها توري فماذا تقولون ؟

فصادق روجر ومرغريت على هذا الرأي . ثم اختلت مدام موستل بابنتها وقالت كظافرة هل نظرت ما أطيب قلب

زوجك . سري وابتهجي بعيشتك يا بنيتي وانزعي عن وجهك هذه الهيئة المحزنة . وماذا ينقصك يا ترى ؟

فتنهدت مرغريت قائلة لا ينقصني شيء .

ثم وصلت اليس وزوجها من فرساي قبل باقي المدعوين وتركت زوجها في منزل أخيها وذهبت تقضي بعض الشؤون في المدينة . أما زوجها القبطان (تورسي) فكان خفيف الروح حلو الحديث بهي الطلعة يعجب كثيراً بمرغريت كما أنها كانت هي أيضاً ترتاح إلى مجالسته ومحادثته وكانت في ذلك اليوم متبرجة ومزدانة بأحسن زينة ، لابسة ثوباً رمادياً جميلاً للغاية وشعرها الذهبي يلمع فوق وجهها المنير الناصع البياض الممزوج باللون الوردي . فتأملها القبطان تورسي طويلاً ثم قال لها : يخال لي اليوم انك مرغريت الأولى نعم من حين دخولك بيت روجر هذا تهملين نفسك ولا تعتنين بملابسك كالأول .

خال لها ان القبطان عرف فكرها وما يختلج في أعماق صدرها وانها لم تتبرج إلا لأنها افتكرت بألبير ولهذا احمر وجهها ثم أجابت : لا تذكر الماضي يا هنري .

— ولماذا يا مرغريت . أنا متأكد كل التأكيد انك لم تذنبي في الماضي ولا محل للانتقاد عليك بالحاضر . وكانت حينئذ زوجته داخلة بالباب فسألته : ماذا كنت تقول ؟

— كنت اردد على مسامع السيدة مرغريت آيات حبي لها معرباً لها عن عواطفي .. وأنت تعلمين عظم مودتي لها .

— ان قولك هذا ينافي العقل والصواب على خط الاستقامة .

ان الدكتور توري قد أظهر من الهشاشة والبشاشة واللطف والدعة ما لم يكن يعهد فيه من قبل روجر وكثيراً ما بالغ في الاطراء على صفات روجر وحسن أخلاقه ، والخلاصة انه كان موضوع كلامه حتى ان مدام تورسي نظرت إلى أخيها نظرة المتعجب . وبعد تناول الطعام اتخذ مدام موستل موضوع اهتمامه واعتنائه فنهض وجلس بالقرب منها وهو يمدح ويثني على ذوق ولطف ابنتها وذكاء وأمانة زوجها مؤكداً لها انه سينجح نجاحاً عظيماً ويشتهر اسمه بين قومه فأجابته : ان ابنتي مرغريت قد سرت سروراً لا مزيد عليه بمعرفة حضرتك .. وأنا أتأمل انها تذهب من وقت إلى آخر إلى مدام فارز صديقتها . فلله در هذه السيدة ما ألطفها وألذ عشرتها !

فصمت توري وأظهر ارتباكاً متلعثماً أو كان لا يدرى بماذا يجيب ولكي يخفي ارتباكه هذا مكن نظارتيه تحت عينيه فلاحظت ذلك مدام موستل .

— وهل حضرتك تزور مدام فارز يا دكتور ؟

— كنت أزورها في الماضي لكني أرى من الآن وصاعداً أن لا حاجة لها إلى أصدقائها القدماء

– هل تسمح لي أن اسألك ما سبب ذلك ؟

– السبب في غاية السذاجة .. وهـــذا أمر لا يهمني كما انه لا يهمكِ ..

– وما هو . ولم لا تصرح بكلامك ؟

– هو صهرك القــــديم ولا أذكر اسمه خوفاً من أن يردده الصدى . نعم هو يتردد دائماً إلى بيتها وهي تستقبله بكل حرية ولا تخفي هذا على أحد

– وهل تظن أن صداقة ...

– نعم صداقتهما تنتهي بالزواج . وعندي شواهد تثبت هذا الظن .. لكن هذا لا يهمك .. وكل منهما طليق الحرية ..

– هذا صحيح ولا جدال فيه .

– لكن يخشى من زيارات مدام روجر وترددها إلى هناك .. فأنا أخبرتك بهذا الخطر الممكن وقوعه مراعاة لحقوق الصداقة . فهل أنا مخطىء في ذلك ؟

– كلا فإني أضحيت في غاية الامتنان لشعائر حبــــك ومن أعظم الشاكرات .

الفصل الرابع والعشرون

انصرف المدعوون الواحد بعد الآخر أما مدام موستل فظلت قلقة البال مضطربة البلبال لما انبأها به الدكتور توري أخيراً خرج روجر لعيادة المرضى وبقيت مرغريت وحدها في حجرتها حيث أضاءت النور الكهربائي ووقفت أمام المرآة ترى ذاتها فسمعت كلام هنري يرن في أذنيها وهو : يخال لي اليوم انك مرغريت الأولى ..

ثم نظرت إلى ذاتها مندهشة وقالت : وماذا تغيّر فيّ عن الماضي ؟ نعم انه مصيب في كلامه ان ماضي لا يهدم وما من قوة أرضية تقدر على هدمه لأنه حي في قلبي .. نعم ان ماضيّ حي وسيحيا إلى الأبد .. ان مصارعتي لنفسي لا تجدي نفعاً .. وأراني أجتهد في محو رسم ألبير من مخيلتي غير أن شوقي يزداد إليه كل يوم وودي له ينمو في كل ساعة .

ترى هل نسيني بل لم لا يكتب لي ويسأل عني ؟ ومن يعلم ان

لم يكن انشغل عني بغيري ؟ نعم طالما تمنيت الابتعاد عنه اتماماً لواجباتي. غير اني اصارع قلبي وفكري بدون فائدة على ما أرى.

ان واجباتي تنهاني عن البحث عنه والتوصل إليه والتمتع بحديثه الرائق، لكن من جهة أخرى لي الحرية بأن أحبه وأميل إليه وأشتاقه .. بل وأبكيه كما لو كان تحت التراب .

ثم أجالت طرفها في ما حولها وهي مذعورة فشعرت بألم في قلبها وأغمضت عينيها ثم فتحتهما وصوبتهما نحو صورة وحيدها مكسيم عند ذلك ابتسمت لهذا الوجه الصبوح الجميل وشعرت بقبلاته اللذيذة ودعته لمساعدتها ليحميها من ذكر البير .. وهيهات ذلك . وكان رسم ايڤون معلقاً فوق صورة مكسيم .

عندما رأت رسم ايڤون وهي مائتة تحدق بها الأزهار على دمها وجرى مسرعاً في عروقها، ثم بسطت ذراعيها وهي لا تعي على شيء لكنها ترتعش شوقاً وحزناً، ثم ضمتهما إلى صدرها وأغمضت مقلتيها ولفظت بصوت مرتفع تلك الكلمة المحرقة التي كانت ترفرف دائماً على شفتيها . ألا وهي : ألبير !

الفصل الخامس والعشرون

أتى جان فارز بيت والدته في عطلة عيد الفصح حيث قضى ٨ أيام بين حنان أمه ودلال شقيقته غير أن البير لم يأت في ذلك الأسبوع . وفي غد رجوع جان إلى المدرسة سألت اودت أمها . هل عندك من خبر عن ألبير .

– لا يا عزيزتي أجابت ذلك باضطراب فلاحظت اودت خطراً بها لذلك دنت منها قائلة : وهل كتبت له ؟

– لم أكتب ولا افتكرت فيه لأني انشغلت عنه بأخيك جان.

– أو لم ترسلي أحداً يسأل عنه ؟.

– لم افكر فيه إلا الآن ولا علم لي بغيابه عنا كل هذه المدة .

– يناسب أن تكتبي له يا والدتي ان كنت ترومين .

– قصدي أن أكتب له وأرسل الرقيم مع الخادمة لتأتينا بالجواب المعجل .

ــ أكتبي حالاً بدون ابطاء . فجلست مـــدام فارز أمام مكتبها وبعـــد أن كتبت الرسالة أرسلتها مع الخادمة إليه ثم تابعت اودت حديثها وقالت : ان البير تعس يا أماه .

ــ نعم انه تعس جداً

ــ وأرى من الواجب علينا أن لا نهمله

ــ ومن منا يهمله ؟

ــ اني أخشى عليه من صداقتك لمدام روجر . فإنها امرأة عديمة الشفقة !

فابتسمت مدام فارز وضغطت ابنتها على صدرها . بغضون ذلك عادت الخادمة حاملة جواباً من الخواجا البير ففضته وقرأت فيه ما يأتي :

سيدتي وصديقتي العزيزة

كنت مريضاً كل هذه المدة أما الآن فإني اتجهت إلى الصحة واني آمل أن يساعدني الحظ بزيارة حضرتك بأول فرصة تسنح حيث أتعزى باللطف عن الوحدة . وتفضلي أخيراً بقبول تحياتي الودادية . ثم دفعت الكتاب لأودت فقرأته وقالت لأمها : حسناً فعلت يا أماه بالكتابة لهذا الصديق المسكين .

في غضون ذلك وصلت إلى عند مدام فارز الآنستان ماسكا واختها وبعد التحية قالت ماسكا : قد كلفنا في هذا اليوم حضور

حفلة موسيقية في الساعة الرابعة بعد الظهر ، فأتينا إلى حضرتك خصوصاً لتأذني لأودت بالذهاب معنا فإنها تسر كثيراً . فشكرتها مدام فارز وأثنت على احساساتهما النبيلة لأنهما تفتكران دائماً في بنتها . فأجابتا اننا نحبها كثيراً .

ثم خرجت اودت مع الآنستين بعد أن أذنت لها والدتها وعينت لها وقت الرجوع وصحبتهن إلى الباب الخارجي ثم عادت تمشي الهوينا حتى إذا وصلت إلى حجرتها ألقت بنفسها على مقعد هناك وقد انحطت قواها . بعد ذلك فكرت كيف أن ابنتها أسرعت بالذهاب غير مبالية بترك والدتها وحدها دون أن تعتذر من جهة خروجها .. رأت نفسها منفردة وحيدة.. ووحدة هذه الساعة جعلتها تفتكر في وحدتها في المستقبل .. قالت ان ابنتي اودت ستتزوج يوماً ما ، وكذلك أخوها جان فأصبح والحالة هذه وحيدة وكل من ولدي يكون ذا بيت هو موضوع أفكاره واهتمامه وأنا المسكينة من يعتني بي يا ترى ؟ نعم ان الذي يحبني حباً عظيما لكن هذا المستقبل .. وبعد أن خطر في فكرها البير تنهدت : آه لو كان لا يكفيني في ان يحبني هذا الشخص ! الله ما أنشف حياتي وأعمقها ! لعمري اني لم أذق في كل أيامي الماضية طعم الحب اللذيذ ، ولم تمس شفتاي كأسه المسكرة .. نعم لقد مضى شبابي دون أن افكر في الحب أما الآن فلم يعد هذا بالإمكان فأنا أشعر والحالة هذه باحتياج إليه نعم أحتاج إلى حبه وميله !

ظلت وقتاً طويلاً بدون حراك وعيناها محدقة بالأرض

متأملة بألبير المريض وكيف انه وحده لا أحـد يهتم به فهو يحيى ليله ساهراً يتقلب على فراش الحمى والآلام ثم استولت الشفقة على قلبها ودبت فيه حرارة جديدة وزفرت زفرة سداها الحزن ولحمتها عظم الاكتئاب ثم نهضت تمشي في الحجرة وهي عازمة على الإعتناء بألبير والاهتمام به .



الفصل السادس والعشرون

أشارت مدام فارز إلى والدها بأن يذهب لعيادة البير المريض وعند رجوعه بادرت اودت لسؤاله قائلة : كيف حاله ؟

– حاله سيئة على ما أظن

– وماذا تعني بهذا القول ؟

فأسرعت مدام فارز من داخل وقالت : أنتَ يا أبتي تزيد في كلامك فتجعل الشيء الذي لا يذكر عظيما جسيما وتتصور أن صحة الجميع ضعيفة نظير صحتك .

– قولي مهما شئت وسترينه بعينك لأنــه ألحّ عليّ بأمر ذهابك لعيادته .

– وهل تذهبين يا والدتي ؟

– بكل رضا .

قال دسباس : كاد قلبي يتفتت اشفاقاً عليه وقد سألته بأن

أعوده بتواتر إذا شاء فرفض معتذراً بأن الزيارات تتعبه إنما طلب مني بلجاجة كلية بأن تذهبي إليه .

لم يمض سوى زمن وجيز حتى ذهبت مدام فارز لعيادة البير وعندما دخلت حجرته نبض قلبها سريعاً حينما رأته ملقى على سريره شاحب اللون منحط القوى فدنت منه ومسكت يده قائلة كيف حالك أيها الصديق الصدوق ؟

ــ ان حالي كما ترين أيتها السيدة النبيلة . قلبي ضعيف بطيء الحركة منذ سنين طويلة !

ــ وكيف لا يكون ذلك وأنت تفتكر دائماً في ما يؤلمك ويكدر صفاء معيشتك ! لله ما أطيب رائحة هذا النسيم المنعش الداخل من هذه النافذة !..

قالت هذا ، لأن النافذة التي تطل على البستان الصغير كانت مفتوحة والنسيم العليل يتلاعب بغصون أشجاره المختلفة وأوراق أزهاره ورياحينه المتنوعة ثم يهب في الفضاء حاملاً روائحها العطرية فينشرها في غرفة المريض الذي هو أليف الوحدة حليف الوحشة والانفراد في دنياه هذه !

نظر البير بعينين منخفضتين إلى الخارج ثم حوّل نظره إلى رسم مرغريت وهو على القرب منه وقال : أريدها هي .. ومن صميم القلب أبتغي مرآها .

وضعت مدام فارز يدها على يـده بلطف متأملة تلك اليـد النحيلة فرفع بصره إليها قائلا : لا رجاء لي إلا بك أنت .

– بي أنا ؟ وماذا أستطيع أن أعمل ؟

فسكت برهة وقال بحرقة لا مزيد عليها اذهبي قولي لها بأني مائت لا محالة واروم أن اودعها الوداع الأخير .

– ماذا تقول ؟ تبصر بأمرك ..؟

– تبصرت كثيراً وتصبَّرتُ زماناً طويلاً وأمعنت النظر في أموري ساعات متتالية إلى أن عيـــل صبري وضاقت حيلتي ففكري هو نديمي الوحيد ومرضي ناتج عن كثرة تفكري فيهـا وقلبي يحدثني بأن أراها لأنها زوجتي ومتى رأيتها شفيت لامحالة! ولا أقدر أن أكتب لها رأساً بينما انحضرتك صديقتها وتستطعين مقابلتها في كل وقت ، فاذهبي إذاً وتوسلي إليها بأن تشفق على صبري الواهي وجسمي السقيم وروحي الذائبة .. ألحي عليها بأن تشفق عليَّ وترق لحالتي هذه استحلفيها باسم ايڤون ابنتي . آه لو علمت ايڤون بحالتي لظهرت لها في الحلم مشددة عليها بالاسراع إليَّ .. هل تفعلين معي هذا المعروف وترثين لحالتي هذه ؟ أجيبي بالايجاب أيتها الصديقة الفاضلة واني لاخالك فاعلة ذلك بالحال !

– نعم رأيتها وكلمتها أيضاً !

– هي زارتني منذ أيام وظهر لي انهـا سيدة قريرة العين ، ناعمة البال. فلماذا تريد أن تقلق راحتها ؟ فإن كنت تحبها حقيقة

دعها وشأنها وبعد هذا وذاك من يعلم ربما تغيّر قلبها من جهتك كانت تحبك في الماضي .. أما الآن ..

— كانت تحبني ولم تزل حتى الآن بل زاد حبها على الأول !

— ومن أنبأك بهذا ؟

— اسمعي . لا أشك في أمانتك على حفظ السر

— تكلم بحرية وكن على ثقة بكل أمورك .

— لله ما أطيب قلبك وأحسن أخلاقك يا ليت كل النساء نظيرك نعم قد حدثت نفسي مراراً كثيرة بأن لو كان باستطاعتي أن أحبك لعاد الهناء مالئاً حياتي سعادة وصفاء غير اني لا أقدر أن أحكم على ذاتي فأنا أحب مرغريت .

— ان المرء لا يحب ويميل إلى من يشاء ومع ذلك ثق بأمانتي وأنا مستعدة لمساعدتك بأمورك الصعبة بقدر استطاعتي :

فأثنى عليها كثيراً وقبل يديها الواحدة بعد الأخرى ثم قص على مسامعها تلك الاجتماعات التي جرت بينهما في البستان حيث كانا يتعاهدان بالملافاة . وهل تظنين أنها لا تأتي بعد أن أفهمتك كل هذا وخصوصاً إذا علمت بأني ملقى على سرير الموت ؟

— أنت لا تموت الآن بل بعد عمر طويل .

— ربما إذا رأيتها تعود إليّ الحياة ، وان لم يساعدني الحظ برؤيتها فإنني أموت حزيناً . آه حقاً انه ليصعب عليّ شرح

ما بي من الآلام ان أفكاري تعذبني جـــداً . انها حيّة وتحبني وأحبها وهي زوجتي ومع ذلك نحن منفصلان الواحد عن الآخر وقبل أن ينهي كلماته هذه ضاق صدره وتنفس الصعداء ثم أغمض عينيه ملقياً رأسه إلى الوراء ، فتناولت حينئذ زجاجة صغيرة فيها رائحة منعشة كانت بالقرب منها وأخذت تنشقه منها حتى فتح مقلتيه ثم قالت له ها أنذا ذاهبة فكن مطمئناً

ــ لا شك أنها تأتي وافرحتاه .

ــ خل عنك الانفعالات النفسانية فإنها تضر بصحتك .

ــ لا تذهبي الآن انتظري قليلاً .

ــ لا بأس. فإني لك مطيعة تناولت مروحة وجعلت تروّح بها وجهه إلى أن ابتسم وأبرقت اسرته وامتلأ وجهــه من سرور الأمل وظهرت عليه امارات النشاط والعافية .



الفصل السابع والعشرون

انطلقت مدام فارز من عند ألبير حزينة النفس قلقة البال مضطربة البلبال لا تعي على شيء لا تعلم ولا تدري كيف تذهب الى مرغريت ومتى تذهب اليها ماذا تقول لها وبأي عبارات تبلغ امرأة ذات زوج هذا الكلام وكيف يسوغ لهـــا ان تحرضها وتستقدمها الى رجل كان زوجها في المـــاضي وانفصلت عنه برضاها وفيما هي سائرة صادفت مركبة فركبتها وأفهمت السائق بأنها تقصد شارع بروني متظاهرة بنسيان عدد المحـــل . قالت ذلك حتى اذا عدلت عن النزول أمام بيت مرغريت تعـــود بسهولة دون أن يعلم السائق شيئاً من تغيير عزمها . وفيما كانت كذلك نظرت الى ساعتها وقالت في نفسها : الساعة الآن ٥ وربما لا أجدها بالبيت في مثل هذه الساعة .. مع ذلك يجب ان أتمم وعدي واذهب دون تغيير وكانت العربة تسرع بهـــا حتى اذا بلغت الى الشارع المعين منها أعلنت للسائق عدد المحل المقصود وعندما انتهت اليه أعطت الخادم بطاقة زيارتها فذهب وعاد بعد

برهة يسيرة معتذراً عن سيدته من انها تتهيأ للذهاب الى فرساي ولا تستطيع مقابلة أحد في هذا الوقت .

فلم تكتف بهذا الجواب بل تناولت قلماً وقرطاساً وكتبت بعض كلمات يسيرة أودعتها ضمن غلاف أرسلته ثانية مع الخادم فلم يبطيء ان عاد اليها يدعوها الى حجرة مرغريت التي عندما رأتها حيتها بأرق الألفاظ معتذرة باستقبالها وهي تلبس ملابسها لأنها عما قليل تتوجه الى فرساي .

– يا سيدة مرغريت هل يسمعنا أحد ؟

– لا أحد يسمعنا تكلمي هل من خبر جديد .

أريد ان اقول لك أمراً سرياً والأحرى . .

– قولي فاني أعرف كل شيء . .

– وكيف تعرفين ؟

– قلت لك أعرف وماذا يهمني . .

– نعم ولكن لا تفهمين غاية مجيئي الى هنا . . اني آتية من قبل ألبير . .

– لا يعنيني أمره ولا علاقة له بي وليس له عندي رجـــاء البتة !

– انه مريض ولكن في حالة يرثى لها ويتوسل اليك أن تزوريه في هذه الحالة .

– وهل ألبير ذاته أرسلك لاقناعي بهذا ؟

– نعم هو استدعاني وكلمني بهذا الخصوص بكل إلحاح ولجاجة . وها أنذا آتية من عنده الآن .

قالت مرغريت في نفسها ان المسألة فيها نظر . وتذكرت ما حصل لها من الغيظ والغيرة عندما أخبرت بما قاله الدكتور توري بخصوص ألبير ومدام فارز هذه . وكذلك لما ابتدأت مدام فارز بمكالمتها في ذلك ،فلم يكن هذا إلا بقصد طلب رضاها للاقتران بألبير . قالت كيف يسوغ لهذه المرأة التي هي غريبة عن ألبير بالكلية ان تذهب الى بيته وتحادثه وتجالسه بل وتمرضه بينما اني أنا زوجته ومع ذلك لا أتجاسر على ذلك حتى ولا ان افتكر فيه وكانت الغيرة في غضون ذلك تعظم في قلبها وتزداد في أفكارها حتى اضطربت كل اعضائها فأجابت بقساوة : جاوبيه بأن امره لا يعنيني مهما كانت حالته ولن اذهب الى بيته ما حييت .

– سأبلغه الكلمات عينها حرفياً لكن بقي عليّ ان اقول لك

كلمة كنت نسيتها وهي انه يستحلفك ويناشدك باسم ايڤون
بأن لا تخيبي أمله وهو على فراش الموت . قالت ذلك وخرجت
لا تلوي على شيء .



الفصل الثامن والعشرون

ولما وصلت الى الشارع تنفست الصعداء إذ خال لها أنه سقط عن منكبيها حمل أثقل من الجبال الرواسي ثم أخذت تفكر في نتيجة هذه المقابلة العقيمة من كل فائدة وكيف ان مرغريت رفضت الذهاب الى ألبير مع انه هو ، هو زوجها الحقيقي أما روجر فانه زوج مجازي لا اكثر. أحبت البير بالماضي ولا يزال يعبدها حتى الآن وهي منفصلة عنه . وها هو طريح الفراش ارسل يتوسل اليها مستحلفاً اياها باسم ابنتها بأن تمنّ عليه بزيارة في مرضه هذا ، فأبت بدلا من ان تسرع اليه وتعتني به وتطيب قلبه ! لعمري ان العقول لعلى تباين عظيم في هذه الدنيا .

ثم بعد إمعان النظر وتردد الفكر في هذا الاستقبال الذي هو في غاية الفتور ، أدركت مدام فارزحق الادراك ان ذلك ناتج عن غيرة عرت مرغريت ، ولا بأس فانها معذورة بهذا المعنى لا بغيره .

ان مدام فارز كانت قد اضطرب بالها منذ اجتمعت بألبير أول مرة في العهد الأخير ولم تكن من قبل الا قريرة العين ناعمة البال وبعد تلك المقابلة مال فؤادها الى ذلك الذي تدمي حالته القلوب أما في المواجهة الأخيرة فكادت تبكي الدم لا الدمع على حالته التي ترق لها القلوب الصخرية ثم عزمت ان تبذل ما في وسعها لتخفيف آلامه وتسكين أحزانه .

عندما وصلت الى بيتها استقبلتها ابنتها بثغر باسم وهي تطوق عنقها بيديها لاثمة بتواتر وجنتيها والأم تلتذ بهذه القبلات البنوية الحارة مصغية بحنو الى دقات قلب ابنتها . قالت أودت : اني استنشق بثيابك رائحة شيء ينعش القلب ويحييه .

– نعم وقد نشقت منه رائحة ذلك العليل الصديق .

– وماذا حصل له ؟

– عسر تنفس .

– وهل من خطر على حياته ؟

– لا أظن . نعم أنه ضعيف القلب ولكن ذلك لا يميت حالا .

فأطرقت اودت برهة ثم نظرت في وجه امها فرأته شاحب اللون .

– هل تشعرين بتعب يا أمي ؟

— أحس ببعض التعب يا ابنتي .

— أرى وجهك ممتقعاً ولا قدرة لك على الوقوف فما هذا الضعف انك تعتنين بالآخرين ولا تلاحظين صحتك .

قالت هذا واجلستها على مقعد واضعة لها وسادة تحت رأسها وجعلت تنشقها الروائح والمنعشات الى ان شعرت براحة عظيمة فنهضت وقالت. أريد ان اغير ملابسي لأننا نتناول العشاء عند مدام بلواي هذا المساء .

— أنا لا أعرف ذلك يا أماه .

— اذهبي إذن والبسي وتهيئي واجتهدي لأن تكوني جميلة تستلفتين الأنظار .

— وهل تسرين اذا كنت موضوعا لاستلفات الأنظار؟.

— لا شك في هذا .

— ستكونين مسرورة لكن أناشدك بحياتك ان تقولي لي الصحيح عن حاله الأكيد وهل هو في خطر ؟.

— ما من خطر عليه لكن مرضه في فكره وتعلمين أن صحته نحيفة جداً .

الفصل التاسع والعشرون

بعد أن خرجت مدام فارز من عند مرغريت بنصف ساعة تقريباً رجع الدكتور روجر الى بيته وأخذ زوجته ليذهب بها الى فرساي حيث يتناولان العشاء تلبية لدعوة والديه . لكنه بهت إذ رآها جالسة ولم تزل بثوبها الاعتيادي كأنها لا علم لها بأمر السفر . فقال لها : كاد الوقت يفوتنا يا مرغريت تحضري بالسرعة قبل ان يسبقنا القطار .

— أنا لا أرغب في الذهاب الى فرساي اليوم .

— ولماذا . هل تشعرين بألم ؟

— لا أحس بشيء لكن لا أريد ان أذهب .

— يلزم ان تتشجعي واذا ما ذهبنا فاننا نسبب الكدر الذين كلفونا بالحضور .

— اكتب لهم بأنه حصل لي صداع منعني عن الذهاب واني اعدهم بالزيارة في يوم آخر .

— أنت لا تريدين ان تذهبي وأنا كذلك فلا بد لي اذن من ان اخبرهم بالتلفون بأن لا ينتظرونا .

— يمكنك ان تذهب إذ لا مـــانع يمنعك . ومن جهتي فاني ارغب في الاختلاء بنفسي بعض الأحيان !

— ها أنذا ذاهب واتأمل ان اراك بأحسن حـــالة عند رجوعي .

— ان شاء الله .

— وها أنا مرسل لك والدتك .

— لا حول ولا .. قلت لك اني احب الاختلاء فدعني الآن وشأني وامض انت والسلام .

ذهب روجر الى حجرة ابنه مكسيم وحمله بين ذراعيه وهو يلثمه واتى به الى امه ووضعه على ركبتيها قائلا : اني اترك الواحد بحراسة الآخر والله يحرس الاثنين معاً وخرج .

ان مرغريت عندما قالت: لن اذهب الى عند ألبير ماحييت ولا علاقة له معي الخ .. لم تكن تفتكر في ما تقول . لكن عند ما اختلت بنفسها بعد ان نام ابنهـا شعرت بنار شوق تحثها الى الاجتماع بمن كانت تميل اليه ثم نهضت من غير روية والتفـّت برداء اسود وغطت رأسها « بشال » مخرم كانت تخصصه للذهاب الى المرسح وتناولت قفازيها ومفاتيحها وكيس دراهم صغير وخرجت من حجرتها إذ كان السكوت سائداً والظلام مرخياً سدوله وان

هي إلا لمحة عين حتى صارت عند الباب الخـارجي حيث استقر عزمها على الذهاب الى عند ألبير بدون ابطـاء . فاستوقفت مركبة رأتها هنالك وسارت بها وكانت الساعة التاسعة من الليل ولما وصلت قرعت الباب ودخلت تقول للخادم : ان الخواجا ألبير ينتظرني .

— يا سيدتي ان الخواجـا مريض جداً فأرجوك ان تخبريني عن اسمك .

— أنا زوجته . فانحنى الخادم احتراماً لهـا ومضى وما لبث ان عاد مشيراً اليها بالدخول الى غرفة سيده فدخلت وصافحته وهي تحدق به ولم تمض بضع دقائق حتى أغمي عليه لعظم الانفعال فألقى رأسه على وسادته وجعل يلهث بشدة . فارتعشت مرغريت وهمت باستدعاء الخادم لمساعدتها ولم يكن إلا القليل حتى فتح عينيه ناظراً الى محياهـا المبلل بالدموع وقـال : اني اراني الآن أسعد رجل في هـذه الدنيا . وبأثناء ذلك اخـذت زجاجـة « كولونيا » وبدأت تفرك بمـائها صدغي العليـل ويديه فانتعش وابتسم وأبرق وجهـه ثم رفع نظره اليهـا ثانية قائلا بحلاوة لا توصف : مرغريت !

— لا تتـكلم اكثر . انا هنا .

نعم ان المحبين لا يحتاجون الى كثرة الكلام (وقـد تنطق العينان والفم ساكت) ثم ضغط على يدها هنيهة وشرع يعرب

عن حبه لهـا ويشكرها على اسراعها بالمجيء اليه ، وبأثناء ذلك يقول : يا زوجتي وهي تشعر بأن صوته هذا يخرق في أعماق قلبهـا ثم تنظر اليه وقلبها يرقص فرحاً لأنهـا اجتمعت بزوجها الحقيقي بعد الانفصال عنه مدة ليست يسيرة فمثلها مثل العليل الذي يجد الصحة بعد المرض المزمن او الاعمى الذي يرى النـور بعد الظلمة . وكانت عيناها تجولان في جدران الغرفـة حيث الرسوم معلقة فرأت رسمه ورسم ايفون ورسمها مستندة على ذراعه . فحينئذ ترقرق الدمع من عينيها ثم أجهش الاثنان بالبكاء . أخيراً نشفت بمنديلها عينيه ووضعت يدها على جبهته ونظرت في مقلتيه باسمة وقالت . لا تبك سأرجع . وبعد نصف ساعة من وصولها نهضت تريد الرجوع ففهم ذلك ولم يعارضها أما هي فسألته . ومن يبقى عندك ؟

— ابقى وحدي . واذا احتجت الى شيء أدعو الخادم الذي ينام في الغرفة الثانية . فأطرقت برهة وهي تفكر في انه هـل يوافق ان تبقى أولا فرأت الأوفق ان تذهب لتنظر ابنها النائم وكان ألبير يحدق بها قارئاً في ملامح وجهها ما يدور في خلدها ولولا القليل لصرخ بأعلى صوته من شدة الألم وهو يريد ان يرجوها لتبقى عنده ولا تتركه وحده لكنه تجلد وسألها بهدوء وهل تعودين ومتى ؟

— نعم أرجع بأسرع وقت ان قدرت أما الآن فلا بد من

ذهابي كي لا أشغل بال منْ في البيت بأمر غيابي على حين غفلة وربما أعود غداً صباحاً . فأجابها بلهجة مؤلمة . لا تذهبي . بل ابقي هنا . فلم تجبه سوى بكلمة واحدة وهي . ولدي . فهز رأسه خاضعاً إذ رأى انه لا بد من رجوعها ثم امسك يدها اليسرى ناظراً الى الاصبع الذي كان به خاتما اتحادهما الأول والثاني . فأشار الى خاتم اتحاده بها وقال لها بصوت منخفض . أشكرك . فخنقتها الدموع لكنها تجلدت وقالت . كن هادئاً مطمئناً يا ألبير وسأعود اليك غداً ان شاء الله وأبقى هنا حتى تتعافى بأقرب وقت وها أنذا استودعك الله وخرجت .



الفصل الثلاثون

عندما دخلت مرغريت الى حجرتها غيرت ثيابها وأسرعت الى حيث ابنها نائم فسمعته يبكي ويصرخ منادياً . يا أماه مع ان المرضع كانت تحمله على ذراعيها وتسير به في ارض الغرفة وهو لا يزداد إلا صياحاً وبكاء فسألت امه عن سبب بكائه فأجيبت بأنه يتألم من إحدى أسنانه ولم يكف عن الصراخ حتى تناولته امه وحملته على ذراعيها وهي تلاعبه وتغني له أغنية محزنة وفي اثناء ذلك عاد الدكتور روجر من غيابه وبمروره أمام غرفة ابنه سمع صوت مرغريت التي كانت تغني للطفل بلحن محزن فلبث برهة مصغياً ليفهم المعنى ثم فتح الباب ببطء واذا بمرغريت لابسة ثوباً أبيض بوجه شاحب صفراء اللون فدنا منها وقال بلطف . دعيني احمل مكسيم .

— هو لا يبكي الآن .

ففهم من هذه الجملة ان دخوله هو في غير محله لأن الولد ساكت فذهب حينئذ واضجع على سريره . ومضى وقت طويل ولم

تذهب الى سريرها فقام وحتم عليها بأن تنام فأطاعت لأنها
شعرت باحتياج كلي الى الراحة .

– لا تدع الولد يبكِ فان صراخه يزعجني ! .

– نامي بحراسة الله ولا تخافي .

عندما وضع الأب ابنه بين ذراعيه سكت سكوتاً تاماً
فانطلقت امه الى غرفتها ونظر روجر يشيعها وحينا اضجعت
نامت في الحال .

وقد رأت احلاماً مزعجة في نومها هذا منها : انها كانت
تمشي في أحد شوارع باريس حاملة ابنها على ذراعيها وكان يثقل
شيئاً فشيئاً حتى اضطرت ان تجلس على الحضيض إذ لم يكن
بوسعها ان تقوى على القيام والسير بعد .. اخيراً جمعت ما بقي
لها من القوة ونهضت وإذا بهوة كبيرة أمامها فلم تلبث ان سقطت
فيها وإذا بها منتبهة من نومها مذعورة مضطربة ..

ثم استوت على فراشها جالسة وهي تعيد في مخيلتها كل ما
كان جرى لها في نهارها على انها تنتظر بفروغ صبر طلوع الفجر
إذ ينشغل روجر بعيادة مرضاه وحينئذ تسنح لها الفرصة
بالذهاب الى ألبير .

الفصل الحادي والثلاثون

ثم خرج الدكتور روجر وهو مشغول البال مضطرب الخاطر سائلا نفسه : ترى ماذا جرى لها نهار امس وما هو سبب غضبها وأي شيء منعها عن أن تصحبني الى فرساي حسب العادة . لعمري اني لم أقدر ان أعرف حتى الآن شيئاً ولو يسيراً بهذا الخصوص .

وفي ابان الساعة العاشرة رأى روجر انه مضطر لرؤية زوجته فعاد الى بيته محتجاً بأنه قد نسي شيئاً فدخل تواً الى حجرته وأخذ بيده رزمة صغيرة ماراً أمام غرفة زوجته التي لم يرَ فيها أحداً سوى الخادمة فسألها عن مرغريت فأجابته بأنها خرجت .

— متى خرجت ؟

— باكراً يا سيدي .

— مع المرضع .

– كلا فان هذه ذهبت صحبة مكسيم منذ نصف ساعة تقريباً وأما سيدتي مرغريت فانها ذهبت وحدها . وكان الجو صافياً جميلاً جداً في ذلك الصباح وهي معتادة على الذهاب في صباح كل يوم كهذا اليوم وروجر يعلم ذلك . ومع هذا اضطرب على رغمه عند سماع كلام الخادمة فانقلب راجعـــاً الى حجرته وجلس يفكر سائلاً نفسه عن سبب هذا القلق والاضطراب ثم أخذ يشجع نفسه ويسكن فكره ووقف وهو ينظر الى ساعته فرأى ان الوقت يسمح له بعيادة بعض المرضى فخرج لشؤونه ولكن اضطرابه لم يفارقه وخال له ان كل ساعة يكون بها بعيداً عن امرأته توازي الدهر كله .

وبعد ساعة من ظهر ذلك اليوم عاد ودخل حجرة المائدة حيث كانت مرغريت بانتظاره كل يوم في مثل هذه الساعة ولكن لسوء الحظ لم يجد أحداً فقرع الجرس ولما حضر الخـــادم سأله : أين سيدتك مرغريت ؟

– انها لم تعد حتى الآن ! ان الطعام مهيأ ان كنت تريد .

– يلزم ان ننتظر مرغريت !

خرج الخادم عابس الوجه مقطب الحاجبين نظراً لتغيير أوقات الطعام وهذا يهمه اكثر من سائر الأمور التي لا يبالي بها . أما روجر فانه فتح نافذة مطلة على الشارع وجلس أمامها وهو

ينظر كل عابري الطريق وقد ضاق صدره وعيل صبره فظهر له عن بعد شبح امرأة فظنها زوجته ولكن لم تكن اياها . وبعد هنيهة نظر مركبة آتية فقال ان مرغريت فيها لا شك فنهض لاستقبالها وقد عاد اليه بعض الرمق غير ان ظنه لم يصب ايضاً فقال : ويلاه ! خاب الأمل وكيف العمل وهو قد مل الاصطبار وسئم من طول الانتظار وجعلت أفكاره تتلاطم كأمواج البحر والهواجس تتجاذبه والتخيلات تتقاذفه والظنون تذهب به في كل شعب وواد .

وعندما رأى أنه اضحى هدفاً لهيجان أفكاره واضطرابها المتواصل مما كاد يخرجه عن دائرة الرشد ويجعله أشبه بالبهائم انحدر بسرعة البرق من أعلى السلم إلى حيث تسكن أمها مدام موستل وهو كمن مسه خبل ثم سأل الخادمة عنها فأجابته : ان مدام موستل تلبس ثيابها تفضل إلى الداخل وانتظر قليلا . فزاده هذا الجواب ضغثاً على إبالة فالتزم ان ينتظر مهدئاً روعه وهو يضرب أخماساً لأسداس غير أنه سئم الانتظار فهجم على باب حجرتها وقرعه بشدة وهو يدعوها ولم تكد تخرج حتى صاح بها بصوت دوت منه كل المساكن: اين هي..وكيف لا تعلمين.. وهل هي في عالم الأحياء أو عالم الأموات..قولي لي الصحيح.. ولماذا تخفين عني .. ؟

– تمهل يا روجر لا تخف ولا تزعج نفسك ولا تلح عليّ

بكثرة الأسئلة بل دعني افعل ما بدا لي..فان سمعت كلامي تتم الأمور على أحسن ما يكون ..

– لكن ماذا جرى وأي شيء يوجد من جديد . اصدقيني الخبر لقـــد قتلني الاصطبار ترى الى متى تدوم معاركة هذه الشؤون .

فتحت يدها اليمنى فرأى فيها ورقة صغيرة قد كتبت فيها مرغريت بعض كلمات فتناولها بيد مرتجفة واذا بها : يا أماه ان ألبير في حالة النزاع ولا أقدر أفارقه ثم أعاد القراءة ثانية وهـو يفرك عينيه وارتبط لسانه وشخص نظره بوالدتها التي قـــالت ها أنذا ذاهبة الى حيث هي لأرى هذا الخطب الذي حل بنا على حين غفلة غير اني استحلفك باسم ولدك بأن لا تحرك ساكناً اترك الأمر على مسؤوليتي قال ولسانه يتلعثم . هي عنده ؟

– نعم هي عنده !

– زوجتي مرغريت .. عنده ..

– لا أفهم .. كيف ..

– لا بد لي ان اذهب لاحضارها !

– قلت لك دع ذلك في عهدتي أنا اعرفهاحق المعرفة ذهابك لا يوافق البتة .

انه في حالة النزاع وهي لا تكذب . يلزم ان تشفق اليوم لتسعد غداً . يقتضي ان تكون حليما لتعود اليك . .

— انها تكرهني الآن بدون شك آه مرغريت . . مرغريت !
قال ذلك وهو يبكي بكاء مرا ودموعه تنهل بكثرة على خديه وأضحى منظره بهيئة يرثى لها .

الفصل الثاني والثلاثون

حدث بعد أن خرج روجر أن نهضت مرغريت وهي تقصد الذهاب إلى البير بعزم ثابت أكيد إذ لم يكن أن يشغلها عنه أعظم شاغل في هذه الحياة كما انه لم يبق أن يهمها عذاب روجر وقلقه واضطرابه لأن قلبها قسا عليه حتى أضحى صخرياً صلداً . كيف لا، وقد كان اقترن بها طلباً لسعادته لا لسعادتها وراحتها إذ لو كان حبّه مجرداً عن الميـــل الذاتي لكان طيب خاطرها وساعدها على احتمال المصائب دافعاً عنها جيوش الهموم من غـير أن يقترن بها على هـــذه الصورة لأنه ابن عمها فهو والحالة هذه ملتزم بتفريج كروبها وتعزيتها في أحزانها لا أن يطلب زواجها به كما جرى حال كونها مقترنة برجل حي

وبناء على ذلك ذهبت إلى غرفة ابنها وقبلته قبلات حارة في سريره بعـد أن أفهمت المرضع بعض أشياء ثم خرجت إلى حيث مسكن البير لا تـــلوي على شيء . فهو ينتظرها ولكن بلا صبر . وقبل أن تدخل غرفة العليل فهمت من الخادم أن

الطبيب عنـــده ففتحت الباب توآً ودخلت بدون استئذان .
وعندما رآها الطبيب نهض عن كرسيه مندهلاً لدخول امرأة على هذه الصورة من غير تنبيه ثم دنت من العليل ناظرة في وجهه وقتاً غير يسير والتفتت إلى الطبيب بعد ذلك قائلة : هل عرفتني يا دكتور ؟ ففهم من هي من مجرد سؤالها هذا لذلك وقف وانحنى ثم جلس وظلت واقفة بقرب رأس البير ماسكة يـــده سائلة الطبيب : كيف تراه ؟

– أراه تعباً يحتاج إلى مرض يعتني به الاعتناء التام .

– أنا أهتم بكل ما يلزم .

– يظهر انه حصل له حركة في هذه الليلة مع ان الانفعال والتأثر مضران به جداً . ثم نهض فرافقته إلى الباب الخارجي وقبل أن يخرج سألته : كيف تراه ؟ قل لي الحقيقة يا حضرة الطبيب .

– ان الحقيقة هي هذه لا أمل بنجاته .

– هل يطول مرضه هذا ؟

– لا أعلم بالتمام . من الممكن أن يموت في هذا اليوم أو أن يبقى حياً مدة ٤ أو ٥ أيام لا غير .

يموت اليوم البير .. وامصيبتاه .

– اعذريني يا سيدتي أنت سألتني عن الحقيقة .

– أشكرك يا حضرة الطبيب وهل يتألم كثيراً ؟

– لا أعلم . سأعود في المساء وخرج فوقفت قليلاً أمام باب الغرفة لتخفي جزعها واضطرابها ثم دخلت باسمة وخلعت عنها رداءها ودنت من السرير . نعم ان هذا العليل المحبوب قد تغيَّر تغيُّراً كلياً منذ بضع ساعات.. فاصفر وجهه وامتقع لونه وخف نظره فرفع بصره إليها وقال بصوت ضعيف جداً تكاد تخنقه العبرات : لا تتركيني .

– اقسم لك بأني باقية عندك حتى تشفى ثم حوَّل النظر إلى رسم ايڤون وقال بصوت فهمته بعد صعوبة كلية : لأجلها ابقي عندي .

– أنا لا أدعك وحدك منذ الآن وصاعداً لأجلك ولأجل حبك لا لأجلها .

– فاذاً لأجل الحب لا تتركيني أموت وحدي

– بعد عمر طويل .

ثم صمتا وقتاً طويلاً كان فيه البير ضاغطاً على يدها وهي تحملق به .. إذا ما رحل عني فانه يأخذ معه قلبي وشيئاً من حياتي .. بل يا ليتني أرحل معه ونتحد سوية في الأبدية بعد أن افترقنا في هذه الحياة ولم لا ادفن بقرب جثته يا ترى وهل من سرور بعده

في هذه الحياة الدنيا لا لعمري لله ما أعذب الموت متحدين . نعم وقد تجاذبنا الحديث مراراً بهذا الموضوع قبل الانفصال وهو أن نموت في ساعة واحدة ، ان حياتي بعده مُرّة للغاية ولابد من موتي في الغد وما هو الفرق بين اليوم والغد الفرق هو ان موتى معه اليوم أعذب من موتي في الغد ، فياليتني أموت معه اليوم لتطير روحي مع روح من أحب حيث تتماسان في الفضاء وتجتمعان من غير انفصال إلى الأبد .

فتح البير المنازع عينيه ناظراً إليها فخال لها أن ذلك البصر الذي أضحى بعيداً يشير إليها لتأتي إليه فابتسمت ونظرت في وجهه بحرقة هذا مقدارها مريدة أن تطبع صورته في ذهنها وتنقش أسرة وجهه على صفحات قلبها تصورت انه وحيد فريد في هذا الكون بل انه هو ، هو العالم بأسره فإذا مات ماذا يبقى يا ترى ؟

وإذ كانت سابحة في فضاء هذه التصورات حصل لألبير اضطراب عظيم وعسر تنفس فظنت ان ساعته الرهيبة قد دنت فتقطع قلبها هلعاً وحزناً ونهضت مذعورة وهي ترتجف فدخل الخادم وجعل ينشق المنازع المنعشات النافعة راشاً على وجهه الماء البارد إلى أن انتعش نوعاً وخف ذلك البحران وعاد إلى سكونه الأول وهو خمود طويل، سكوت هائل لاقتراب ساعة الموت .. فظنت انه نائم وتنحت جانباً وسألت الخادم : كيف قضى ليلته الماضية .

— كتب عدة تحارير ثم أغمي عليه من شدة التعب. ثم سألها باحترام متى تريدين أن تفطري يا سيدتي ؟.

— ومن له قابلية في هذه الحالة .

انما سؤال الخادم هذا فكرها ان زوجها ينتظرها بدون شك كما انه لا يعلم أين هي لأجل هذا كتبت تلك الكلمات الوجيزة وأشارت إلى الخادم أن يرسل ذلك إلى أمها في الحال . وبما أن مرغريت أرادت أن تحفظ قواها إلى النهاية أمرت الخادم بأن يهيىء لها شيئاً من الطعام لأنه يلذ لها أن تتناوله تحت سقف بيته في آخر ساعة من ساعات حياته .



الفصل الثالث والثلاثون

توسلت مدام موستل إلى مرغريت ابنتها من صميم قلبها بأن تعود بالعجل إلى.. زوجها فلم تعر كلامها جانب الاصغاء . وبعد أن ذكرت لها ابنها الصغير أجابت : اني افكر فيه وفي نفسي أيضاً كما انه ليس باستطاعة أحد أن يأخذ مني ولدي.. وسأدافع عن نفسي ما استطعت بدأت أمها تلح عليها متوسلة إليها بأن نعود إلى بيتها ٣ أو ٤ ساعات ثم ترجع وهي تقوم مقامها في خدمة البير وتمريضه . فلم تبال بهذا القول بل انقلبت راجعة إلى حجرة العليل وهي تقول لهـــا : في الزمن الماضي كنت أعمل بموجب أمرك ونهيك أما الآن فلا . نعم قد تغيّرت تغيّراً كلياً . وذلك لأن البير هو زوجي الشرعي أمام الله والناس ونفسي . ولو كان في حالة النزاع ولا يكون مكاني إلا بالقرب منه في الحياة بل وفي الممات أيضاً .

– وابنك يا مرغريت ؟

– ابني لا يحتاج إليّ اليوم ولا غداً بل وفي الحالين لا أترك

البير قد تركته مرة في الحياة وذلك لا يعني اني أتركه في ساعة الموت . قالت هـــذا وخنقتها الدموع فلم تدر امها ماذا تقول ولا كيف تعمل وأين تتوجه ؟

– يا ابنتي مرغريت قد تركت روجر كالمجنون .. فهـــل تسمحين لي أن أعود بعـــد ذهابي إلى هنا وأبقى معك إلى حين رجوعك إلى بيتك .

– نعم .

رفعت أمها يديها إلى السماء وجعلت تناجي ربها قائلة : آه يا لها من تعاسة ! لِمَ لم تسمح يا الله بأن يقترن البير بمدام فارز بل كيف شاء العدل الإلهي أن يكون هذا الرجل سبب لتعاسة ابنتنا أولاً وثانياً مع ما هي عليه من التمسك بشرائعه والمحافظة على وصاياه ! ثم مضت وهي لا تعي على شيء ولا تدري بما تجيب ذلك الذي كان ينتظرها في حال يرثى لها ويرق الجلمود الأصم . وعندما وصلت أخبرته بما دار من الحديث بينها وأن العليل مطروح على فراش الموت يقاسي آلام النزاع وهو لا شك مائت . وكان روجر يسمع كلامها لن لا يفهم معناه قد بذلت مجهودي ترى ماذا يلزم أن أصنع أكثر وكنت قلت لها بأني أرجع إلى عندها لأكون بصحبتها وهذا الرأي هو في غاية الموافقة واللياقة . فهل من مانع عندك .

لم يجبها روجر على الفور بل فكر وقتاً طويلاً ثم قال : لا بأس من رجوعك إلى هنالك .

ـ لله درك يا روجر فقد خلصتنا بهذه الحيلة من ألسنتهم .

ـ لا يلزم أن تظهري اضطرابك هذا أمامهم وخذي كل ما تحتاج مرغريت إليه معك . .

حينئذ ترقرق الدمع في مقلتيها وقالت : لله ما أطيب قلبك وما أسلمه كيف لا تحبك يا أحسن الرجال وأسماهم بالفعال والأعمال !

ـ اذهبي حالاً فإني متكل عليك في مثل هذه الأحوال .

الفصل الرابع والثلاثون

وكان نور حياته ينطفيء شيئاً فشيئاً ومرغريت جاثية بقربه في هيئة تفتت الأكباد وماسكة يده بين كفيها وهي تردد على مسمعيه من وقت لآخر . أنا هنا وتبكي بكاء مراً ليس على مـا تراه في الحال فقط بل على الماضي إذ انفصلت عنه بمجرد ارادتها وبذلك رفضت حبه وسعادتها معاً . وحينا عادت امها جلست في الغرفة المجاورة لأن مرغريت تريد أن تكون منفردة في حجرة العليل . وبما أن النافذة بها تطل على البستان أجـالت النظر في تلك الحديقة الغناء المحتوية على انواع الازهار والرياحين ثم حولت عينيها الى جدران الغرفة حيث رسم مرغريت وايفون فتبادر الى ذهنها حالا ان ابنتها ذات زوجين فلو ان هذا المنازع يعود الى الحياة ماذا يحدث يا ترى ؟ وهل تنفصل عنه مرغريت لتعود الى روجر . ان الامارات لا تدل على شيء من هذا ! وهي بدون شك تبقى عنده ، كيف لا وهو زوجها ولكن الحمد لله . .

فان الرجل مائت لا محالة.. وكانت الساعة تمر ببطء لدى مدام موستل هذه فضاق صدرها وعندما سألت عن حال المريض قيل لها انه لا يزال على ما كان عليه من الضعف والانحطاط وقد عاده الطبيب وخرج من غير ان يقول شيئاً فخابرت روجر بالآلة الناقلة الصوت « التلفون » وسألته عن حالة مكسيم فأجابها انه يهتم به وألح عليها بألا تترك مرغريت .

في أول هجمات الليل ابتدأ النزاع فشعرت مرغريت إذ ذاك بخوف هذه الوحشة الهائلة وحـــدها وعند انتصاف الليل استدعت والدتها واجلستها في ركن من الغرفة وبقيت هي بجـانب السرير الذي كان لم يزل يحتـوي على آثار تلك الروح الراحلة الى عالم الأبدية . ولم تكن تجد من تعزية وتسلية سوى البكاء والنحيب ثم جثت على ركبتيها ساكبة الدموع الحارة — دموع ندم وحب وحزن —

ولم تكن الساعة الثانية بعـد نصف الليـل إلا سمعت مدام موستل صوتاً زعزع اركان ذلك البيت : وا مصيبتاه وا لوعتاه لمن تتركني :

يا راحلا ودموع الحزن تصحبه   هل من سبيل الى لقياك يتفق

نعم مات ولم يبق لها ان تراه وعما قليل ينحل في قبره

ويعود الى التراب الذي أخذ منه الانسان . كانت مرغريت تسمع كلام امها وتفهمه ولا تستطيع ان تعمل بموجبه بل كانت تغمض عينيها وتأبى ان تجيب عليه بكلمة حتى حارت امها في أمرها وفي غضون ذلك وصلت مدام فارز وهي مصفرة الوجه ممتقعة اللون خائرة القوى، فنهضت للقائهـــا مرغريت بسرعة وتعانقتا وهما تعولان وتنتحبان حتى جرت دموعهما على الحضيض ومـــا من معز يفثاء لوعتهما ولا تزدادان إلا صياحاً ونواحاً بنوع يرق له الصخر ، ثم سألتها مرغريت وكيف بلغك خــبر نعيه ؟ أجابتها ، كان كتب لي ليلة مجيئك الى هنـــا ، أشار ان يرسل لي كتابة بعد موته وهكذا وصلني في هذا الصباح . فتجدد بكاء مرغريت وقتاً طويلا وهي تندبه وترثيه وتودعه الوداع الأخير بألفاظ تزحزح الجبال الرواسي ، ثم قالت لها مدام فارز . هل تريدين أن تأتي إليَّ حيث تبقين يوماً أو يومين ؟

– نعم بكل اختيار. قالت أمها: وزوجك يا مرغريت..؟

– لا اقدر أن أراه الآن . . فأنا أريد الذهاب معها لا محالة !

. . . .

جثت الاثنتان أمام جثة ألبير الهامدة زماناً غير يسير وهما تصليان وتضرعان إلى الله بأن يرحمه ويمتع تلك الروح براحة في فسيح جنانه ، ثم زودتاه بنظرات الوداع الأخيرة وخرجتا وفي كل قلب جراح عميقة .

نعم ان نيران الحزن المتقدة في الأحشاء تخمد شيئاً فشيئاً ثم يستدعي الصغير أمه فتعود هذه اليه بشوق وحنين والعود احمد وذاك الذي كان حلماً غفـوراً يصبح في آخر الأمر محبوباً أبد الدهر ...



هذا الكتاب

ليس في الثلث الأول من هذا القرن صوت أدبي نسائي أشجى من صوت مي زيادة .

وليس من فكر كفكرها يلتمع فيضي داعيًا الى الحرية والتقدم مجاراة لركب الحضارة في شتى الميادين والسبل .

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقلام المستنيرة إلى التجديد الأدبي إبداعا في الشكل التعبيري وفي المضمون الفكري فضلا عن أنها تجسد طموح المرأة العربية إلى الحياة ، وطموح الأمة الى الدخول في حركة العصر وبناء المجتمع والوطن .

... **رجوع الموجة** رواية تطفح بالمشاعر الإنسانية العميقة وبالأحداث الزاخمة الممتعة ، كما ينحو فيها قلم مي نحو الإبداع القصصي المدهش والبث البلوري المتألق ، فيغدو الكتاب قطعة من أدب مي الخالد ، وقطعة من روحها وعبقريتها الفذة كرائدة من رواد الفن ، وعلم من أعلام التقدم والحرية والكرامة .

وحسب الكتاب أن يثير في القارئ أعذب الذكريات وأن يولجه أبواب الحياة الإنسانية في أخصب معاناتها وأنبل مشاعرها وحسبه أن يوقظ في نفسه متعة التذوق الفني وبهجة الإبداع القصصي .

الناشر